This book is provided in digital form with the permission of the rightsholder as part of a Google project to make the world's books discoverable online.

The rightsholder has graciously given you the freedom to download all pages of this book. No additional commercial or other uses have been granted.

Please note that all copyrights remain reserved.

About Google Books

Google's mission is to organize the world's information and to make it universally accessible and useful. Google Books helps readers discover the world's books while helping authors and publishers reach new audiences. You can search through the full text of this book on the web at http://books.google.com/

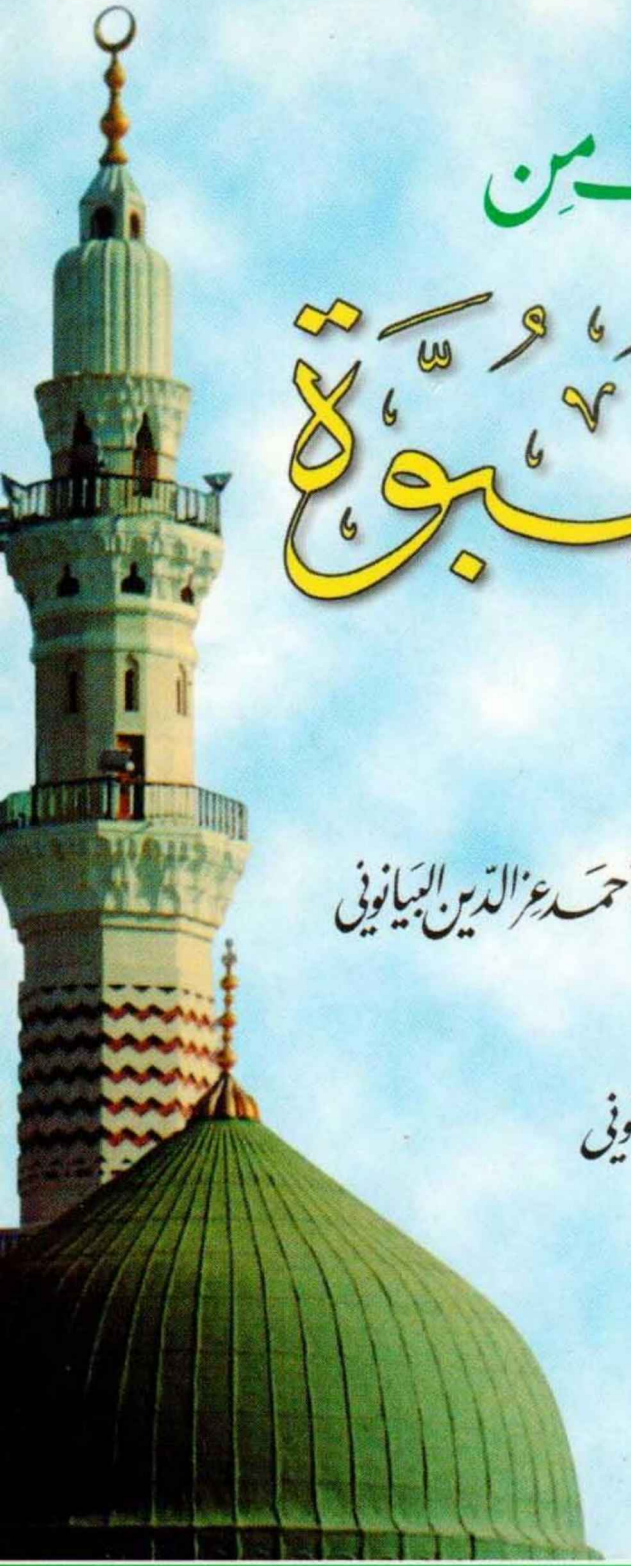

قبسات من نور النبوة

تأليف

الشيخ عبد الفتاح أبو غدة
الشيخ أحمد عز الدين البيانوني

تقديم

الدكتور الشيخ محمد أبو الفتح البيانوني

اعتنى به

عبد المجيد البيانوني

دار ابن حزم

كل الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى ١٣٧٠ هـ

الطبعة الثانية ١٤٢٠ هـ

{يا أيّها النبيّ إنّا أرسَلناكَ شَاهِداً ومُبشّراً ونَذيراً، وداعِياً إلى الله بإذنِهِ وسِراجاً مُنيراً، وبَشّرِ المؤمنين بأنّ لهم مِنَ الله فَضلاً كَبيراً} [الأحزاب: ٤٥ ـ ٤٧].

{هُو الذي بعَثَ في الأميين رسُولاً منهُم يتلُو عليهِم آياتِه ويُزكيّهم ويعلّمُهُمُ الكتابَ والحكمةَ، وإن كانُوا مِن قبلُ لفِي ضَلالٍ مُبين (٢) وآخرينَ منهُم لمّا يلحَقُوا بهِم، وهُو العزيزُ الحكيمُ (٣) ذلِكَ فضلُ الله يُؤتيهِ مَن يشاءُ، والله ذو الفضلِ العظيمِ (٤)}.

[من سورة الجمعة].

تقدمة الكتاب

لفضيلة الأستاذ الدكتور محمد أبو الفتح البيانوني

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فقد لا يعلم كثير من الناس أن كتاب: (**قبسات من نور النبوة**) كان باكورة التأليف والنشر للكتب العامة، غير الكتب المدرسية التي ألفها الشيخان الجليلان رحمهما الله تعالى.

أَذْكر وأنا في الحادية عشر من عمري، أي عام ١٣٧٠ هـ الموافق ١٩٥١م، تلك الجلسات المتتابعة التي كان يعقدها الشيخان لتأليف هذا الكتاب، وذلك في الغرفة المقابلة لحرم مسجد أبي ذر في مدينة حلب، حيث كنّا نسكن في جواره، وكان الوالد إماماً له بعد الجدّ الشيخ عيسى البيانوني رحمهم الله تعالى أجمعين.

ولا زلت أذكر تلك العناية الفائقة التي كان الشيخان يبذلانها في سبيل إخراج هذا الكتاب على شيء من الاستعجال،

وذلك لعظم موضوعه من جهة، وشدة الحاجة إليه من جهة أخرى ؛ حيث كانت تدور في الساحة حين تأليفه معارك مفتعلة من قبل بعض الجاهلين بالإسلام، والحاقدين على رسوله محمد ﷺ، فيثيرون شبهاتهم حول شخصيته ﷺ، يريدون انتقاصه وهو الكامل، ويهدفون إلى إبعاد الشباب عنه، وهو الأسوة المطلقة التي اختارها الله لعباده.

فأراد الشيخان أن يسدَّ هذا الكتاب تلك الثغرة، وأن يدفع تلك الشبهات المثارة بأسلوب غير مباشر، حيث تضيء هذه القبسات، وتنجلي تلك الظلمات.. وذلك دفاعاً عن الله ورسوله ﷺ.

ولعل من لطيف قدر الله أن طُلِبَ مني التقديم لطبعة جديدة لهذا الكتاب – بعد وفاة شيخنا وأستاذنا أبي زاهد عبد الفتاح أبو غدة – رحمه الله تعالى – بما يزيد على سنة، حيث صعب علي قبل ذلك الكتابة عنه على الرغم من تعدد الجهات، التي طلبت ذلك مني، ومن محاولتي ذلك أكثر من مرة.. وها أنذا أكتب عنهما اليوم، وقد أصبحا في جوار الكريم المنّان الذي اجتمعا عليه وتفرقا عليه، فإني لم أر في حياتي نموذجاً مشابهاً

بين العلماء لذلك الحبّ الذي جمعهما، والثقة المتبادلة بينهما، والتعاون الوثيق الذي كان بارزاً في حياتهما..

وإن من نعم الله علي أن عرفت الشيخ أبا زاهد، وأنا طفل في سن التمييز، ولكم كنت أتردد على منزله القريب من مسجد أبي ذر، فأحظى بإكرامه ومداعباته التي لا تُنسى، ثم أكرمني الله بالتتلمذ على يديه في الثانوية الشرعية، كما خَصّني رحمه الله مع بعض الشباب بحضور درس علميّ عليه في (جامع الحموي) في حلب، حيث كان يختار لنا بعض الكتب الصغيرة النافعة، فنقرأها عليه، والتي كان من بينها كتاب (الحِسْبة) لابن تيمية رحمه الله تعالى، الذي ما عرفناه إلا عن طريقه، فقد زرع فينا حبّ العلم والعلماء، والحرص على اقتناء الكتب النافعة، حتى أنه كان يشتري لي الكتاب، ويسجّله ديناً على الوالد ـ رحمه الله – فَيُسَرُّالوالد بذلك، وكان كلما وجد كتاباً نافعاً جُدّدت طبعته يدلنا عليه، ويتابعنا في ذلك حتى نشتريه، وأذكر مرة تشجيعه لنا على شراء كتاب: (نَصْبِ الراية) للإمام الزَّيلعي رحمه الله، ونحن في المرحلة الإعدادية من الدراسة، فتأخرت في شرائه نظراً لظروف اقتصادية شديدة كانت تحيط بالوالد رحمه الله، فلما أَلمحتُ له سبب تباطئي في شرائه، اشتراه لي وقدمه

هدية للوالد رحمه الله، وبقي على هذا الحال، يتفقدنا بمثل هذا حضراً وسفراً حتى آخرحياته، ويكفي أنه في آخر لقاء لي معه، حيث زرته في منزله بالرياض عائداً مودعاً قبل وفاته بأيام زوّدني بالعديد من كتبه النافعة والطبعات الجديدة لها، فجزاه الله عنّا خير الجزاء، وجمعنا معه في علّيّين..

وعودة إلى كتاب (**قبسات من نور النبوة**) لنستجلي من خلاله بعض ملامح منهج الشيخين في كتاباتهما، وبعض المعالم في شخصيتهما، والتي منها:

١ ـ تجاهلهما السبب المباشر، الذي دفعهما إلى تأليف هذا الكتاب، والاكتفاء بالإشارات إلى الشبهات المثارة في حينه حول سيرة الرسول العظيم ﷺ، والاهتمام بتفنيدها مع تجاهل أصحابها، حتّى لا يُساهما في تخليد أسماء أهل السوء وإشهارها بين الناس من حيث لا يقصدون، فالمهمّ عندهما القضاءُ على الشبهات في مهدها، وتحصين الأجيال تجاهها، أيّاً كان مصدرها وأيّاً كان القائل بها.

٢ ـ عنايتهما بالإحالات العلميّة، وتوثيق النقل، في وقت لم ينتشر فيه هذا الأسلوب العلمي الضروري عند كثير من علماء عصرهم.

٣ ـ تدارسهما لما يكتبان قبل نشره، وكان كثيراً ما يقدّم الشيخ أبو زاهد المادّة العلميّة الموثّقة، ثم يدعها للوالد بعد مدارستها معه ليصيغها بأسلوبه السهل المُمْتَنِع، ولكم كان الشيخ أبو زاهد يُظْهر سروره وإعجابه بحسن صياغة الوالد رحمه الله للفكرة المرادة والمادّة العلميّة المقدّمة، إلى غير ذلك من معالم وملامح يقف عليها المتأمل لهذا الكتاب.

وأختم تقديمي لهذا الكتاب بالإشارة إلى بعض المعالم المشتركة، والخصائص المتشابهة التي جمعت بين الشيخين المؤلفين، عسى أن يكون في ذكرها عبرة وعظة، فمن ذلك:

١ ـ اشتراكهما في الأخذ عن بعض الشيوخ، ولا سيما عن الجدّ (الشيخ عيسى البيانوني) رحمه الله، الذي كان الشيخ أبو زاهد يعتز ويفتخر بِتَتَلْمُذِه عليه، وقربه منه فما كان يذكره إلا ويغلب عليه البكاء.

٢ ـ تقاربهما في العمر حيث كان الوالد يكبر الشيخ أبا زاهد بخمس سنوات فقط، وتشابههما في شخصيتهما المتوازنة التي كانت تجتمع فيها كثير من الخصائص، التي قلَّ أن تجتمع في شخصية واحدة في هذا العصر.

٣ ـ بروزهما العلمي والدعوي، حتى كادت تجتمع عليهما كلمة الزملاء والأقران، بل كلمة بعض شيوخهما في كثير من لقاءاتهما الدعوية، وتحركاتهما الدعوية الجماعية.

٤ ـ تلاقيهما في المنهج العلمي والدعوي، وتعاونهما الوثيق في سبيل الخير، واشتراكهما في حمل هَمّ هذه الأمة، وتحمل الأمانة والمسئولية، والقيام بواجب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، دون أن تأخذهما في الله لومة لائم.

٥ ـ تناصرهما في الحق، وتعاضدهما في سبيله، وأذكر أنه لمّا سُجِن الشيخُ أبو زاهد رحمه الله في فترة من الفترات في سبيل الله، كان الوالد رحمه الله، يتحرّك ويتحرَّق، ويقول لمن حوله من العلماء والدعاة:" لابد من وقفة واحدة تجاه هذه التصرفات – مهما كانت النتائج – فإما أن يأخذونا معه، أو يطلقوا سراحه، ولو وقَفَنْا وِقفةَ رجل واحد ما جرؤ الأعداء على أخذنا جميعاً، واضطروا لإطلاق سراح الآخرين".

وكانت له وقفة عَمَليّة جريئة في مثل تلك المناسبات، مع بعض الشيوخ في حلب وأذكر منهم أستاذنا الشيخ: طاهر خير الله رحمه الله، جَرَّت عليهم المصائب، وسُرّحوا بسببها من وظائفهم لمدة سنوات، فتقبلوا ذلك صابرين محتسبين، وكان

لموقفهم هذا الأثر الكبير في نفوس الناس، الذين تعاطفوا معهم، وأَكْبَروا موقفهم، وحَفِظوها لهم.

هذان هما مؤلفا كتاب **(قبسات من نور النبوة)** الذي قدّم لنا جميعاً مشاعل نور مضيئة من سيرة الرسول العظيم ﷺ، والذي أحببنا من خلال تقدمته أن نقدم للقراء قبسات من نور ورثته العلماء العاملين، والدعاة الربانيين، الذين لنا فيهم قدوة، وفي سيرتهم عظة وعبرة..

هذا وقد رأيتُ الشيخَ أبا زاهد رحمه الله في المنام يوم سوّدتُ هذه الكلمات ضاحكاً مستبشراً، كما كنت أراه في حياته، فحدّثته عنها، فسُرّ بها، وأخذ يُذكّرني ببعض الحوادث والمواقف الأخرى التي تتصل بعلاقته مع الوالد، ويذكرُ لي مواقف أخرى لم أعرفها سابقاً، ولم أحفظها عنه في الرؤيا.

أسأل الله عز وجل أن يتقبل منا ومنهم جميع أعمالنا، وأن يجعل هذا الكتاب وغيره من كتبهم صدقاتٍ جاريةً في صحيفتهم إلى يوم الدين، وأن ينفع بالكتاب المسلمين في كل مكان، فيبدّد الظلمات، ويفنّد الشبهات، ويجلي سيرة خير العباد.. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وكتبه: د. محمد أبو الفتح البيانوني

مقدّمة الناشر

الحمدُ لله الذي هدانا لهذا، وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله، والصلاة والسلام الأتمّان الأكملان على سيّدنا محمّد، خاتم النبيّين، وسيّد الأوّلين والآخرين، المبعوث رحمة للعالمين، الذي أخرجنا الله به من الظلمات إلى النور، وهدانا به من الضلالة، وبصّرنا بشريعته من العمى، فالحمدُ لله الذي جعلنا من أمّته، وهدانا بسنّته، وأكرمنا باقتفاء أثره، واتّباع منهجه ودعوته، صلّى الله وسلّم، وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين، ومن اتّبع سنّته وهديه إلى يوم الدين.

أمّا بعد ؛ فإن صلتي بهذا الكتاب تعود إلى سنّ الصبا، فقد كان أوّل كتاب في سيرة النبيّ ﷺ أقرأه وأشغف بقراءته، فاستشعرت منذ قراءته أنه غرس في قلبي محبّة المصطفى ﷺ وتوقيره، والحرص على التعرّف أكثر على سيرته العطرة، وشمائله الكريمة ﷺ..

ثم شاءت أقدار الله تعالى أن أتتلمذ على مؤلّفيه رحمهما الله تعالى، وأتّصل اتّصالاً وثيقاً بفضيلة أستاذي

وشيخي الشيخ أحمد عزّ الدين البيانوني رحمه الله، فأشهد بصورة واقعيّة شدّة محبّته لرسول الله ﷺ، ودقّة اتّباعه لسنّته الكريمة، وحرصه على التخلّق بشمائله العطِرة، وأدبه مع هديه، وغيرته على شريعته.. ممّا قدّم لي صورة عمليّة حيّة لما كتبه مع أخيه في الله الشيخ عبد الفتّاح أبو غدّة رحمه الله، في مؤلّفهما الصغير الحجم، الغزير المادّة، الكبير القدر والنفع والأثر..

وانعقدت صلتي على أثر ذلك بكتب السيرة النبويّة، وشغفت بها، فكنت لا تقع يدي على كتاب من كتبها إلاّ حرصت على قراءته، ومضت الأيام ولا تزال ذكريات هذا المؤلَّف وتأثيره ماثلاً في خاطري، يعاودني الحنين إلى النظر فيه مرّة بعد أخرى، وبخاصّة ما رأيت فيه من أسلوب سهل ممتنع، ملائم للناشئة مؤثّر في قلوبهم.

ثمّ وفّقني الله لجمع رسالة في الشمائل النبويّة العطرة، سمّيتها:" **ومضات من هدي النبيّ الخاتم ﷺ**"، كتبتها لحاجة رأيتها ملحّة في واقع الشباب والناشئة، للتعرّف على هدي النبيّ ﷺ، وشمائله العطرة، تجمع إلى إثارة الروح العاطفيّة

نحو هذا النبيّ الكريم ﷺ، تقديم الدليل العقليّ الفطريّ على صدق نبوّته، وبرهان رسالته، ولقيت من القبول بإذن الله تعالى ما أكّد لي ما توقّعته من أهمّيتها، ثمّ طلب منّي بعض الأحبّة أن أكتب موجزاً جامعاً في السيرة النبويّة على غرار تلك الرسالة فبدأت العمل وشعرت بعظم العبء ومشقّة الجهد، فماذا آخذ من سيرة النبيّ ﷺ العطرة، وشمائله العظيمة.؟! وماذا أدع.؟! وكيف أستطيع الاختصار في أحداث السيرة، ولا ترتوي غلّة المؤمن المحبّ إلاّ إذا قرأ الحدث بتفصيلاته، وعرف الرجال المشاركين فيه، واطّلع على دقائقه وخفاياه.؟! فتلكّأت عن هذا الأمر وتلبّثت، ثمّ ذاكرت في ذلك بعض الإخوة الفضلاء فذكّرني بكتاب الشيخين:" **قبسات من نور النبوّة**"، فعادت بي الذكريات إلى عهدي به منذ الصبا، وما تركه في نفسي من الآثار الطيّبة، فاجتهدت في الحصول على نسخة منه فحصلت عليه، وها أنذا أقدّمه اليوم إلى أبنائنا وناشئتنا، عسى أن يقع من نفوسهم موقعَه من نفسي يوم كنت في مثل سنّهم، فيضع

أقدامهم على الطريق الصحيح في الفهم لهذا الدين، والمنهج الحقّ في العلاقة مع النبيّ ﷺ، والتلقّي عنه والاتّباع لهديه.

ـ **عملي في نشر الكتاب**: نظراً لقرب عهدنا بمؤلّفي الكتاب، ومعرفتنا بمنهجهما الدقيق في البحث العلميّ، وحرصهما على العزو إلى المصادر العلميّة التي يأخذون منها، فإنني لم أقم بالعودة إلى مصادر الكتاب التي أحالا إليها في كلّ نقل، وإنما اجتهدت في ضبط النصوص، وفي نقل بعض الإحالات إلى الحاشية، وترتيب بعض الحواشي بما يناسب الإخراج في عصرنا.

والله تعالى أسأل أن يتقبّل هذا العمل من الشيخين، وأن يكتب لهما به أعظم الأجر، وأطيب الذكر، وأن يأجرني على العمل في خدمة هذا الكتاب وإخراجه، إنّه أكرم مسئول وهو المرجّى للتوفيق والقبول.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

جدّة في ١٤١٩/١٠/١ هـ

وكتبه راجي عفو ربه

عبد المجيد بن أسعد البيانوني

كلمة في التعريف بفضيلة الأستاذ المربّي الشيخ أحمد عزّ الدين البيانونيّ رحمه الله تعالى

ـ **أسرته ونشأته**: هو الداعية القدوة، والعالم الربّانيّ، الورع التقيّ، المربّي الشيخ أحمد الصياد، الملقّب: عزّ الدين، ابن الداعية العالم، والعارف الزاهد، الشيخ عيسى البيانوني رحمه الله تعالى.

ـ **والبيانوني**، نسبة إلى قرية صغيرة اسمها" بيانون" تقع شمالي مدينة" حلب"، في بلاد الشام، على بعد خمسة عشر كيلاً منها تقريباً، وهي مسقط رأس الشيخ عيسى رحمه الله تعالى، الذي رحل منها إلى حلب، فنسب إليها وعرف بها.

ـ ولد الشيخ أحمد عام ١٣٣٠هالموافق ١٩١٣م في مدينة حلب، واستقرّ مقامه فيها مع والده رحمه الله تعالى، وكان والده من كبار علماء البلاد المشهود لهم بالعلم والفقه، والورع والتقوى، والتمسك بالسنة النبويّة والمحبّة لرسول الله ﷺ.

ـ نشأ الشيخ أحمد في أسرة علميّة صالحة، وأفاد من علم والده، ومن علماء عصره، وصحب شيخ والده الشيخ محمّد أبا النصر خلف الحمصيّ، وأفاد من صحبته كثيراً، والتقى كثيراً من

أقران والده من علماء حلب وعلماء بلاد الشام، وعلماء الحرمين الشريفين، وغيرهم من علماء العالم الإسلاميّ.

ـ تلقى الشيخ أحمد دراسته النظاميّة في المدارس الحكومية، وتخرّج في دار المعلمين، ثم عمل في حقول التربية والتعليم المختلفة، وعمل الشيخ رحمه الله مدرّساً في المعهد العربيّ الإسلاميّ، كما عمل سنوات عديدة ناظراً في الثانويّة الشرعيّة، وكان له تأثيره البالغ في نفوس الطلاب فيها، حتى طلب الإحالة على المعاش عام ١٩٦٨م، حرصاً على التفرغ للدعوة، وتربية الشباب على المنهج التربوي الذي شرح الله له صدره، وسار عليه في حياته، وقد ظهر أثر ذلك المنهج القويم في أهله وأولاده، وإخوانه ومحبيّه، وجميع من يلوذ به.

ـ اتجه إلى طلب العلم الشرعي، والتمسك بالسنة النبويّة، والاهتمام بالدعوة إلى الإسلام، والتربية على منهجه وآدابه، بُعيد دخوله ميدان التربية والتعليم، وهو شابّ في مقتبل العمر، واتّخذ لذلك منهجاً عملياً، يقوم على الحرص على تطبيق أحكام الإسلام، وسننه وآدابه، والتمسّك بها وإشاعتها، ودعوة الناس إلى هذا المنهج، وتربية الأفراد والأسر على ذلك.

ـ **نشاطاته الدعويّة**: كان له دور رائد مع العلماء والدعاة إلى الله تعالى، في شتى المجالات الاجتماعية والدعوية، التي تهمّ الإسلام والمسلمين.. وكان حريصاً على اجتماع كلمة العلماء، وتوحيد مواقفهم من الأمور العامة.

ـ **كان متفنّناً في أسلوبه التربوي**، ومنهجه التعليمي، عظيم التأثير في نفوس تلامذته، وبخاصّة أولئك الذين درّسهم في أي مرحلة من مراحل التعليم، وفي مختلف مجالاته.

ـ خلَف والده رحمه الله تعالى في الخطابة في" جامع العثمانية" والإمامة في" جامع أبي ذر"، وانطلق عام ١٣٨٥هـ= ١٩٦٥م من جامع أبي ذر، في تأسيس مدرسة دعوية تربوية، اهتمّت بإحياء رسالة المسجد، وتربية أبناء المسلمين، على التمسك بهدي الإسلام ومبادئه وآدابه، في كل شأن من شئون الحياة.. فأقبل الشباب على مجالسه الخاصّة والعامّة، ووضع لهم مناهج تربوية وتعليمية، على حسب مستوياتهم واحتياجاتهم، واعتنى بنشر العلم الشرعي في صفوفهم، واتخذ من الوسائل والأساليب التربوية والدعوية، ما يكفل لهم النشأة القويمة الراسخة، جاعلاً شعاره التربوي:" الاتّباع والعمل، والأخذ

بالعزائم، وإحياء السنن، وبناء الفرد والأسرة والمجتمع، على مبادئ الإسلام وآدابه".

وقد انتشرت مدرسته الدعويّة في كثير من بلاد المسلمين، وساهمت مع غيرها من المدارس الدعويّة في بعث الصحوة الإسلاميّة المعاصرة.

ـ **شخصيّته**: امتازت شخصيته بعدة مزايا: أهمها الصدق والصراحة، والحرص على الحق، وشدّة التمسك به، والتضحية في سبيله، وكان واقعياً عملياً، يكره الكلام بغير عمل، يتمتّع بصفات قيادية، قلّ أن تجتمع في رجل ؛ فقد كان إدارياً دقيقاً، حازماً حكيماً، يباشر الأعمال بنفسه، ويتابعها بدقّة واهتمام، ولا يملّ من متابعة الأمور، والمحاسبة على التقصير، وكان مهيباً محبوباً، دمث الأخلاق، دقيق الملاحظة، رقيق الشعور، لطيف المعشر، ذا ذوق رفيع في كلّ شيء، لأنه ذو طبيعة فنيّة موهوبة، لا يملّ جليسه من حديثه، لما يتمتع به من دعابة لطيفة، وحسن مفاكهة، وحضور بديهة، وانتقاء لأطايب القول، واحترام للجليس.

ـ وكان شديد التواضع للحق وللخلق، يعرف ذلك في مجلسه ومشيته، وملبسه وتعامله مع جميع الناس، وكان حريصاً

على النصح والتذكير، قائماً بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، في كلّ موقف، بحكمة بالغة، وحسن تأتٍّ للأمور، مما جعل تذكيره ووعظه، وأمره ونهيه مقبولاً ومحبوباً..

ـ وكان يشارك في أعمال البيت، ويعين أهله في عملهم، ويكرم ضيفه ويقوم بخدمته بنفسه، وكان عظيم الجود والكرم، والبذل والإنفاق في سبيل الله، لايكاد يفرغ من سداد الدين الذي يتحمّله في سبيل ذلك.

ـ وكانت تربيته لأبنائه وبناته، وإخوانه وتلامذته، نموذجاً يحتذى في التربية الصالحة القويمة المتّزنة، وقد أودع خلاصة تجربته التربوية، وفكره التربوي في كتابه:" منهاج التربية الصالحة".

ـ وقام تصوره عن العمل الإسلامي في هذا العصر، والدعوة إلى الإسلام وخدمته، على أساس من الحرص على: إحياء رسالة المسجد، وانطلاق الدعوة إلى الله تعالى من حلقات العلم والتربية في المساجد، والاعتناء بتربية الفرد والأسرة تربية شاملة متوازنة، على مبادئ الإسلام وقيمه وآدابه، بصورة تطبيقيّة عمليّة، فعمل على نشر العلم الشرعي في صفوف الشباب، ووضع منهجاً تربوياً متكاملاً، يتدرج بالشابّ في تطبيق

الإسلام، والالتزام بسننه وآدابه في كل شأن، وتكوين الأسرة الصالحة الملتزمة بآداب الإسلام وهديه، ثم الدعوة إلى ذلك في المجتمع.

وقد وضع لذلك رسالته الأولى:" سبيل الهدى والعمل"، التي لخّص فيها هدي الإسلام في جميع شئون الحياة، وعرضه على شكل وصايا محدّدة، وقد حظيت هذه الرسالة بقبول عظيم في مختلف الأوساط، وطبعت أكثر من عشر طبعات، وانتشرت في مختلف البلدان، وترجمت إلى عدة لغات.

ـ **أخلاقه وصفاته**: كان رحمه الله تعالى عابداً زاهداً، تقيّاً ذاكراً، مستقيماً ورعاً، حريصاً على اتّباع السنّة في كل شأن، لا يترك التهجّد في جميع الأحوال، شديد الخوف من الله، كثير البكاء من خشيته، عظيم الحب لله ورسوله ﷺ، حريصاً على الحج والاعتمار كل عام.

ـ وقد وضع له بإخلاصه وتقواه، وزهده وورعه، وحكمته ولطف معشره، الحبّ والقبول في قلوب العامّة والخاصّة، حتى عند أولئك الذين يخالفونه الرأي، ويختلفون معه في المنهج.

ـ **آثاره ومؤلفاته**: شارك رحمه الله تعالى في إعداد مناهج التربية الإسلامية في سورية لعدة صفوف دراسية، مع فضيلة

الأستاذ العلاّمة الشيخ عبد الفتّاح أبو غدّة رحمه الله، كما شارك معه في كتابة هذه الرسالة:" **قبسات من نور النبوّة**"، وكان الغرض من تأليفها الردّ على بعض المغرضين المفترين من أعداء الإسلام.

ـ **وعني رحمه الله تعالى** بتقريب العلوم الشرعية، والثقافة الإسلامية لأبناء هذا العصر، فألّف **سلسلة العقائد**، وهي في سبعة أجزاء صغيرة، وسلسلة **العبادات** في الفقه الحنفيّ، بطريقة مناسبة ميسّرة، وسلسلة:" **من هدي الإسلام**"، وهي ذات موضوعات متنوعة، كلها مما يهمّ الشباب، ويسهم في تكوينهم الإسلاميّ المتزن، وقد صدر منها خمسة عشر كُتيّباً، وله بعض الكتب التي توفّي قبل إكمالها، منها كتاب في الآداب الشرعيّة، ومنها تتمّة الحديث في العشر المهلكات.

وقد حظيت مؤلفاته بالتأثير والقبول في مختلف مستويات الناس، وفي عدة بلدان، لما امتاز به مؤلفها رحمه الله من صدق وإخلاص، ولما فيها من مادة علمية نافعة، وما تتمتّع به من أسلوب واضح سهل.

ـ **وخطبه الجمعة كلها مكتوبة**، وتمتاز بقوة البيان، وجمال الأسلوب، وجدّة الموضوعات، ومعالجة الموضوعات المعاصرة،

والبعد عن الحشو والتطويل، والتركيز على الجوانب الإيمانيّة والتربويّة التي تحتاجها الأمّة.

ـ **وله شعر إسلامي**، قوي جزل، في شتى الأغراض، وأكثره في الحنين إلى أرض الحجاز، وإثارة الشوق إلى المشاعر العظام، والتذكير بصاحب السيرة العطرة عليه أزكى التحية، وأعطر السلام، وفيه الحثّ على العودة الصادقة إلى دين الله تعالى، واتّباع شرعه وهديه، والاعتزاز بالإسلام ومبادئه وقيمه.

ـ **وفاته**: تُوفي رحمه الله تعالى ضحى يوم الجمعة ١٧ من ذي الحجة ١٣٩٥هـ ـ الموافق ١٩ من كانون الأول ١٩٧٥م، بعد مرض عضال ألمّ به، عانى منه أشدّ الآلام، وكان أسوة حسنة في الصبر والاحتساب، ودفن في مقبرة" العرابي" في مدينة حلب، وكان يوم جنازته يوماً مشهوداً.

رحمه الله تعالى رحمة واسعة، ورفعه عنده في عِليين، مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً [1].

---

(١) ـ للناشر ترجمة مفصّلة للشيخ أحمد رحمه الله في رسالته للدكتوراة عن رسالة المسجد في سورية.

كلمة في التعريف بفضيلة الشيخ الربّانيّ العلاّمة الجليل
عبد الفتّاح أبو غدّة رحمه الله تعالى، وأسكنه فسيح جنّاته

ـ **أسرته ونشأته**: هو عبد الفتّاح بن محمّد بشير أبو غدّة، وينتهي نسبه إلى الصحابيّ الجليل خالد بن الوليد ﷺ، وكان لدى أسرة الشيخ شجرة تحفظ هذا النسب وتثبته .

ـ ولد رحمه الله في منتصف شهر رجب من عام /١٣٣٦/هـ الموافق /١٩١٧/ م، في أسرة متوسّطة الحال تعمل في صنع المنسوجات والتجارة بها.

ـ وكان والده كثير التلاوة للقرآن الكريم، محبّاً للعلماء حريصاً على مجالستهم، والانتفاع بتوجيههم وإرشادهم.

ـ وعندما كان في السنة الثامنة من العمر أدخله جدّه رحمه الله المدرسة العربيّة الإسلاميّة، وهي مدرسة خاصّة، فدرس فيها القراءة والكتابة من الصفّ الأوّل إلى الصفّ الرابع، ثمّ توجّه إلى تعلّم الخطّ في مدرسة الشيخ محمّد علي الخطيب، فتحسّن خطّه بعض الشيء، ثمّ ترك المدرسة بعد أشهر.

ـ **طلبه للعلم وتفوّقه**: ولمّا بلغ التاسعة عشر من العمر دخل المدرسة الخسرويّة، وذلك من عام /١٩٣٦ ـ ١٩٤٢ / م، وكان متفوّقاً فيها على أقرانه في جميع سني دراسته .

ـ ثمّ انتقل إلى الدراسة في الأزهر الشريف، عام /١٩٤٤/ م، فدخل كلّيّة الشريعة ثمّ تخرّج فيها عام /١٩٤٨/ م وحاز على شهادة العالميّة.

ـ ثمّ درس تخصّص أصول التدريس في كلّيّة اللغة العربيّة في الجامع الأزهر أيضاً لمدّة سنتين، وتخرّج فيها سنة /١٩٥٠/ م، وعاد بعد ذلك إلى مدينة حلب مسقط رأسه.

ـ **شيوخه**: كان من شيوخه في الخسرويّة: الشيخ راغب الطبّاخ، والشيخ أحمد الزرقا، والشيخ عيسى البيانوني، وهو من أكثر شيوخه تأثيراً فيه، كما ذكر ذلك رحمه الله في عدّة مناسبات، والشيخ أسعد عبجي، والشيخ أحمد الكرديّ، والشيخ نجيب سراج الدين، والشيخ مصطفى أحمد الزرقا، والشيخ إبراهيم السلقيني رحمهم الله تعالى [1].

---

(1) ـ وقد جمع الأستاذ الفاضل الشيخ محمّد الرشيد أسماء شيوخ الشيخ عبد الفتّاح وقراءاته وإجازاته ومروياته في كتابه:" إمداد الفتّاح".

ـ **وأمّا شيوخه في الأزهر الشريف** ؛ فمن أبرزهم: الشيخ محمّد الخضر حسين، والشيخ عبد المجيد دراز، والشيخ عبد الحليم محمود، والشيخ محمود شلتوت، والشيخ عبد الله الصدّيق الغماريّ، والشيخ محمّد أبو زهرة رحمهم الله تعالى.

ـ والتقى في مصر الشيخ مصطفى صبري شيخ الدولة العثمانيّة سابقاً، والشيخ محمّد زاهد الكوثريّ، والشيخ حسن البنّا رحمهم الله تعالى، وتتلمذ تلمذة خاصّة على الشيخ محمّد زاهد الكوثريّ رحمه الله تعالى، وأفاد من علمه كثيراً، كما انتفع بالشيخ حسن البنّا رحمه الله، وانتسب إلى جماعته، وكان من قادتها البارزين في سورية.

ـ **رحلاته العلميّة**: قام الشيخ رحمه الله بالعديد من الرحلات العلميّة والدعويّة إلى شتّى أقطار العالم مستفيداً ومفيداً ؛ فرحل إلى الهند وباكستان، والسودان والمغرب والعراق، والتقى علماء هذه الأقطار، وطلاّب العلم فيها، وحمل من زياراته المتعدّدة إلى الهند وباكستان كثيراً من علم علماء القارّة الهنديّة، فحقّق عدداً من الرسائل والكتب العلميّة، ونشرها في بلاد المشرق الإسلاميّ.

ـ **ومن أبرز العلماء الذين لقيهم في تلك البلاد**: الشيخ محمّد شفيع مفتي باكستان، والشيخ عتيق الرحمن كبير علماء دلهي، والشيخ محمّد زكريا الكاندهلوي، والشيخ محمّد إدريس الكاندهلويّ، والشيخ محمّد يوسف البنّوريّ، والشيخ محمّد لطيف، والشيخ أبو الوفاء الأفغانيّ، والشيخ أبو الأعلى المودوديّ، والشيخ أبو الحسن علي الحسني الندويّ.

ـ **نشاطاته العلميّة والدعويّة**: درّس الشيخ رحمه الله مادّة التربية الإسلاميّة في المدارس الثانويّة في مدينة حلب أحد عشر عاماً، وكان يعقد لمدرّسي مادّة التربية الإسلاميّة مجلساً أسبوعيّاً للتشاور فيما يهمّ مادّة التربية الإسلاميّة، ويحلّ المشكلات التي يواجهها المدرّسون في المدارس، وشارك في تأليف الكتب المدرسيّة المقرّرة لهذه المادّة، بالاشتراك مع خليله الحميم الشيخ أحمد عزّ الدين البيانونيّ رحمهما الله تعالى، كما درّس في المدرسة الشعبانيّة، وفي الثانويّة الشرعيّة، وهما مدرستان شرعيّتان، كما انتدب للتدريس في كلّيّة الشريعة بجامعة دمشق، فدرّس فيها ثلاث سنوات، وعمل في إكمال إنجاز" **موسوعة معجم فقه المحلّى لابن حزم**" وطبعته جامعة دمشق في مجلّدين كبيرين.

ـ **وانتخب** عام /١٩٦٢/ م نائباً عن مدينة حلب، وكان له أثر فعّال في نصرة الحقّ في مجلس النوّاب، واضطهد في دينه فدخل السجن الصحراويّ في تدمر أحد عشر شهراً، ثمّ أفرج عنه فبقي في سورية مدّة، ثمّ اضطرّ للمغادرة، فتعاقد مع جامعة الإمام محمّد بن سعود في المملكة العربيّة السعوديّة، فعمل مدرّساً فيها، وعمل في المعهد العالي للقضاء، وأستاذاً لطلبة الدراسات العليا، ومشرفاً على الرسائل العلميّة، فتخرّج على يديه كثير من الأساتذة والعلماء، وقد شارك في وضع مناهج المعهد العالي للقضاء، ومناهج كلّيّة الشريعة في جامعة الإمام محمّد بن سعود الإسلاميّة، واختير عضواً في المجلس العلميّ فيها، ولقي من إدارتها كلّ تكريم وتقدير، ثمّ عمل في وضع مناهج الدراسات العليا في جامعة الملك سعود، وقبل وفاته بسنوات تفرّغ من العمل الوظيفيّ، وعكف على العلم والتأليف، حتّى وافته المنيّة رحمه الله وأعلى منزلته.

ـ وانتدب الشيخ أستاذاً زائراً لجامعة أمّ درمان الإسلاميّة في السودان، ولمعاهد الهند وجامعاتها، وشارك في كثير من الندوات والمؤتمرات الإسلاميّة العلميّة التي تعقد على مستوى العالم الإسلاميّ، وكان من الأعضاء المؤسّسين في رابطة العالم الإسلاميّ.

ـ وقد قام مركز أكسفورد للدراسات الإسلاميّة باختيار الشيخ رحمه الله لجائزة العلم التي قدّمها له سلطان بروناي، تقديراً لجهوده في التعريف بالإسلام، ومساهماته القيّمة في الحديث النبويّ الشريف.

ـ **جهوده العلميّة**: يعدّ الشيخ رحمه الله من العلماء الثقات الأثبات الذين يفخر بهم العالم الإسلاميّ في هذا القرن، فقد أحاط بالعلوم الشرعيّة، وتبحّر في علمي الفقه والحديث على وجه الخصوص، فأكبّ منذ بداية حياته العلميّة على تحقيق بعض الكتب النفيسة في هذين الفنّين ونشرها، ويمتاز تحقيق الشيخ عبد الفتّاح رحمه الله بأنه يقدّم مع الكتاب المحقّق كتاباً آخر مليئاً بالفوائد العلميّة النادرة، والتوضيحات النافعة، والاستدراكات المهمّة، ممّا يصدّق قول القائل:" **كم ترك الأوّل للآخر!**".

وقد بلغت الكتب التي ألّفها الشيخ، أو حقّقها، أو اعتنى بنشرها وأخرجها، أكثر من سبعين كتاباً.

كما توفّي رحمه الله عن عدد آخر من الكتب بعضها كان تحت الطبع، وبعضها تمّ ولم يدفع للمطبعة، وبعضها يحتاج لنظرة أخيرة، وبعضها مضى فيه ولم يتمّه، وبعضها كان في صدره أملاً

مأمولاً، وهو القائل:" **يندر أن يموت العالم دون أن يكون في صدره حسرة على كتب لم يخرجها**".

وتمتاز كتابة الشيخ رحمه الله بالأدب العالي، والذوق اللغويّ الرفيع، وحسن الانتقاء للألفاظ والكلمات ممّا ينمّ عن تمكّن أدبيّ راسخ، يندر في طبقات المشتغلين بالعلوم الشرعيّة وعباراتها الفقهيّة الدقيقة.

ـ وكان للشيخ رحمه الله ولع شديد بكتب العلم يتتبّعها من مظانّها مطبوعة ومخطوطة، ويصرف وقته وجهده وماله في سبيل اقتنائها وخدمتها وتقديمها للقارئ بحلّة بهيّة قشيبة.

ـ **نشاطه الدعويّ العامّ**: كان الشيخ رحمه الله خلال وجوده في سورية مدرسة دعويّة متحرّكة، فقد تخرّج على يديه ثلاثة أجيال أو أكثر من الدعاة العاملين، كلّهم يفخر بالاغتراف من علم الشيخ وتربيته وتوجيهه.

وكانت له إلى جانب خطبة الجمعة ثلاثة دروس أسبوعيّة: فجلسة للتفقّه في الدين في مسجد الخسرويّة بعد صلاة الجمعة، يجيب فيها الشيخ عن أسئلة الشباب ومشكلاتهم بأسلوب معاصر، ومنهج شرعيّ سديد، يربط الفتاوى بأدلّتها الشرعيّة، ويوشّي حديثه المؤثّر بتوجيهاته التربويّة.

ـ ودرس للفقه يوم الاثنين بعد المغرب من كلّ أسبوع، يستعرض الأدلّة، ويقارن فيه بين المذاهب وكان يغمر الحاضرين بواسع علمه واطّلاعه، ويمزج الفقه بنكتات علميّة، وتوجيهات إيمانيّة، يخرج منها الحاضرون بزاد علميّ وإيمانيّ طيّب.

ـ ودرس يوم الخميس في الحديث الشريف، والتربية والتهذيب، كان يقرأ فيه مدّة في صحيح الإمام مسلم رحمه الله.

ـ **شخصيّته**: عرف الشيخ عبد الفتّاح رحمه الله بشخصيّته القويّة المتّزنة، شخصيّة العالم العامل، الداعية المجاهد، فكان واسع العلم، رحب الاطّلاع بصيراً بمشكلات عصره، يعيش هموم أمّته، وتؤرّقه معاناتها، وكان يتمتّع برزانة الشخصيّة، وتعلو محيّاه الهيبة والوقار، حلو الحديث، لا يملّ منه جليسه، يأسر الحاضرين بحسن عبارته، وعذب مفاكهته، حاضر البديهة، حسن الجواب، وكان بعيداً عن الغلوّ والشطط، يزن الأمور بميزانها الشرعيّ الصحيح، بعيداً عن أسر العادات أو تقليد غيره بغير حجّة أو برهان، ولا أدلّ على ذلك من موقف الشيخ رحمه الله من شيخ الإسلام الإمام ابن تيمية رحمه الله، فقد أدرك الشيخ رحمه الله عدداً من علماء عصره المرموقين وفيهم تحفّظ وازورار عن شيخ الإسلام رحمه الله، لمآخذ يرونها، ولكن الشيخ عبد الفتّاح

أنصف شيخ الإسلام وعرف قدره، وكان يذكر مواقفه، ويكبر علمه، ويجلّ جهاده وتضحياته العظيمة في سبيل دينه، وقد ورّث تلامذته ومحبّيه هذا الموقف العدل المنصف.

ـ **أخلاقه وصفاته**: كان الشيخ عبد الفتّاح رحمه الله مجمّع الفضائل والشمائل، سخيّاً كريماً، يحرص على إكرام ضيفه بما يستطيع، وكان رحمه الله حليماً صبوراً يعفو عمّن أساء إليه ويصفح، أبيّاً خلوقاً، لا يؤذي أحداً بكلامه، وكان لا يغضب إلاّ نادراً، وأكثر غضبه لله تعالى، يحترم محدّثه وجليسه، ويثني عليه، ويختار الألفاظ الراقية المهذّبة، وكان عاقلاً حصيفاً أريباً، لا تخرج من فمه الكلمة إلاّ بميزان، ولا يقوم بأمر إلاّ ويزنه بعقله، وكان يقول:" **استعمل عقلك في كلّ الأمور**".

وكان ظريفاً خفيف الروح، يمازح جلساءه بالقدر المناسب، ويضفي على مجلسه العلميّ وحديثه التربويّ روح اللطافة والمرح، بما يناسب مقام المجلس، ويخفّف من وطأة الوقار كيلا يملّ الجلساء.

وكان على ذوق رفيع في ملبسه ومأكله ومشربه، ومكتبه وترتيب كتبه، وكان عفّ اللسان، لا يشتم أحداً مهما أساء إليه.

وكان صبوراً على الطاعة والابتلاء، حريصاً على الصلاة في أوّل وقتها، في السفر والحضر، والصحّة والمرض، غارساً ذلك في أولاده وأحفاده، فإذا كان نائماً أو متعباً ونبّه إلى الصلاة انتفض وقام مسرعاً، وطالما ذكر قصّة عمر بن الخطّاب ﷺ بعدما طعن عندما كان يقول:" **لا حظّ في الإسلام لمن ترك الصلاة**".

وكان له ورد صباحيّ من القرآن الكريم لا يدعه إلاّ مضطرّاً، ويكثر من الأذكار والأوراد، فلا تجده جالساً بدون عمل علميّ من تأليف أو تحقيق أو بحث أو مطالعة، إلاّ وجّدته يسبّح ويحمّد ويهلّل ويكبّر.

وكان سريع الدمعة، حاضرة العبرة، يفيض دمعه عند كلّ مناسبة، وعندما تعرض على سمعه أحوال الأمّة ومآسيها، وعندما يمدح، ومن حضر حفل تكريم الشيخ في" الاثنينيّة" عند الشيخ عبد المقصود خوجة رأى كيف قطع الوقت كلّه بالبكاء.

وكان من تألّمه وتحرّقه على أحوال المسلمين، والمآسي التي يتعرّضون لها يبكي، وينتحب بالبكاء، وقد فقد سمعه بأذنه اليمنى بعدما سمع بعض المآسي عن المسلمين في بعض البلدان، فبات حزيناً مهموماً، وفي اليوم التالي شعر بدم يسيل من أذنه، ثمّ ذهب سمعه بها، ثمّ ابتلاه الله بعد فقد سمعه بضعف بصره، فما شكى

أو تشكّى، ولا ثناه ذلك عن نشاطه العلميّ وإنتاجه، بل تجمّل بالصبر والتسليم، وثابر على نشاطه في التأليف والتحقيق مخافة أن يدركه الأجل، ولم يخرج ما في صدره من الكتب، نقول فيه ذلك ونحسبه كذلك، والله حسيبه ولا نزكّي على الله أحداً.

توفّي الشيخ رحمه الله في مدينة الرياض عن عمر يناهز الثمانين سنة، فجر يوم الأحد التاسع من شهر شوال /١٤١٧/ هـ الموافق ١٩٩٧/٢/١٦ م، ونقل إلى المدينة المنوّرة، ودفن في البقيع، رحمه الله تعالى، وأجزل مثوبته، وأكرمه بمرضاته، وأسكنه فسيح جنّاته، وعوّض الأمّة الإسلاميّة خيراً عن فقده (١).

(١) ـ اعتمدت في كتابة ترجمة الشيخ رحمه الله على ما نشر في مجلّة المجتمع بعد وفاته.

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة القول

الحمدُ لله الذي أرسلَ رسولَه بالهدى ودينِ الحقّ ليظهره على الدين كلّه، والصلاةُ والسلامُ على سيّدنا محمّدٍ، سراجِ الهدى وخاتم النبيين، وعلى آله وأصحابه، ومن تأسى بهم واتّبع منهجهم القويم، **وبعد:**

ففي أواخر القرن السادس من الميلاد، خيَّمت على العالم ظلماتُ الجهالةِ، وأحاطت به سُـبُلُ الضلالةِ، فانحطّ العقل البشريّ حتى عبَدَ الحجارةَ، وقسا القلبُ الإنسانيّ حتى وُئدت البناتُ بأيدي آبائهنّ، فكان لابدّ لهذا العالم مِن هدىً يقمَعُ شرّ الضلالاتِ، ويُنقِذ الإنسانيّة المعذّبةَ من ويلاتها وبلائها، وأصبح المجتمع أحوجَ ما يكون إلى علم يمحو هذه الجهالات، ونُور يقشَعُ تلك الضلالاتِ...

وأراد الله رحمة العالم، فبعث الرسول الأعظم محمداً ﷺ، وأشرقت شمس الرسالة في مكة قلب البلاد العربية، وانبثق

الوحي الإلهي من غار حراء، في قمّة ذلك الجبل الأشمّ، وشعَّ الهدْي النبوي في أزكى بيوت قريش نسباً، وأسماها شرفاً.

قام هذا النبيّ الكريم ﷺ بأعباء الرسالة، وتحمّل في سبيلها من المشاقّ ما أظهر عظَمة النبوة في حلم وكرم، وثبات وجلد ؛ ودارَ الفلك دورته، فكانت الهجرة إلى المدينة، حيث أشرق هذا النور منها على العالم، وعاش الناس بفضل الإسلام في بحبوحة العلم، وطمأنينة الهدى، وكنف السعادة.

ولم يكن من السهل لأي إنسان ـ مهما بلغ من القوة والعظمة ـ أن يقوم بهذه الرسالة، فيفتح أعيناً عُمياً، وقلوباً غُلفاً، وآذاناً صُماً، إلاّ أن يكون له عون من الله تعالى، ربّ الرسالة، وموجد هذه الخليقة.

وإن مثل هذه الشخصية الكريمة لجديرة بأن تكرّر ذكراها كلّ آنٍ على كلّ قلب، ليقتبس الناس من شمائلها وفضائلها ما يشفي مجتمعاتهم من أمراضها، ويقرّبهم من الخير الذي تبحث عنه الإنسانية هنا وهناك، فيبدّلهم من خوفهم أمناً، ومن ذلهم عزاً، وينقلهم من مهاوي الشقاء إلى مرافل السعادة والهناء.

وقد رأينا الكثير من ناشئتنا وأبنائنا لا يعلمون شيئاً عن صاحب هذه الرسالة العظمى، إلاّ ما سمعوه من أفواه تُشوّه الحقائق، أو قرؤوه من كتب تلبّس الحوادث، وتمسخ التاريخ، وتلبسه ثوباً لا يتلاقى مع واقع الإسلام، ولا مع رافع لوائه سيّدنا محمد عليه الصلاة والسلام.

فكتبنا هذه (القبسات) النبويّة موجزين فيها ما أمكن، لتكون في صفحات يتمكن الباحث من قراءتها في زمنٍ قليل، مقرِّين أن الكتابة في نبوة المصطفى ﷺ خوض في بحر لا يصل فيه الكاتب إلى شاطئ، ناقلين ما كتبنا عن أوثق المصادر المعتمدة، مقتصرين على النصوص الناطقة في موضوعها، ومعلّقين عليها عند الحاجة، بقدر ما يُنير السبيل، ويفهم الغاية، ليكون كلّ مسلم على معرفة صادقة من نشأة نبيه الكريم ﷺ ، ونسبنا كل قول وخبر إلى مصدره [1]، أداءً للأمانة، وتأييداً للثقة به. والله ولي التوفيق.

---

(1) ـ طريقتنا في النسبة إلى المصادر التي استقينا منها: أن نشير بالرقم الأول إلى الجزء، وبالثاني إلى الصفحة منه، فقولنا مثلاً: روى مسلم في صحيحه (٢٦/١٥)، معناه: أن الحديث مذكور فيه في الجزء الخامس عشر والصفحة السادسة والعشرين منه، وقد استغنينا في كثير من المواطن عن تسمية الكتب

حلب ـ الجبيلة في ٣٠ من جمادى الآخرة ١٣٧٠هـ

عبد الفتاح أبو غدة و أحمد عز الدين البيانوني

التي أكثرنا النقل عنها، مكتفين بذكر أسماء مؤلفيها قبل الرقم المشير إلى الجزء والصفحة من كتبهم.

١) ولادة الرسول ﷺ:

جرت عادة الله تعالى في أنبيائه ورسله أن يختارهم من أشرف الناس أصلاً، وأكرمهم نسباً، وأطيبهم منبتاً، وقد اصطفى محمداً ﷺ من آباء طاهرين، وأمهات طاهرات، فكان صفوة الصفوة، وخيرة الخليقة، اختاره الله طاهراً زكياً، من أوسط العرب نسباً، وأعرقهم مَحْتِداً، لا تجد في سلسلة آبائه إلا كراماً، ولا ترى في نسب أمهاته إلا رفعةً ونبلاً.

عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **(إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيلَ، واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة، واصطفى من بني كنانة قريشاً، واصطفى من قريشٍ بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم)** (١).

وقد ولد ﷺ يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول عام الفيل. هذا هو المشهور؛ لكن حقق العلامة محمود باشا الفلكي

---

(١) - رواه الإمام مسلم في صحيحه [٢٦/١٥] والترمذي في سننه [٩٤/١٣] وجاء في رواية زيادة: **(فأنا خيار من خيار من خيار)**.

[1] أنه ولد ﷺ في يوم الاثنين ليلة التاسع من ربيع الأول سنة (٥٧١) من الميلاد.

قال العلامة الشيخ محمد زاهد الكوثري حفظه الله [2]: (وهذا القول هو المعتمد، لأنه الموافق لأرجح الروايات في يوم مولده، ولأنه مبني على حساب دقيق صادق، والتحقيق الرياضي لا يتخلف، لكن أغلب البلاد أخذ برواية الثاني عشر من ربيع، ليكون الاحتفاء بمولده في زمن كان بروز الرسول ﷺ لهذا العالم في مثله أمراً متفقاً عليه عند الجميع).

وقد أخرج الإمام أحمد [3] عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال:" وُلد النبي ﷺ يوم الاثنين، واستُنبئ يوم الاثنين، وخرج مهاجراً يوم الاثنين، وقدم المدينة يوم الاثنين، وتوفي ﷺ يوم الاثنين".

وقال الذهبي [4]: قال أبو قتادة الأنصاري رضي الله عنه: سأل أعرابي رسول الله ﷺ فقال: ما تقول في صوم يوم الاثنين؟. قال: (ذاك يوم وُلِدْتُ فيه، وفيه أوحَى الله إليّ).

---

(١) - في كتابه (نتائج الأفهام في تحقيق مولد النبي وعمره عليه الصلاة والسلام).
(٢) - توفي رحمه الله سنة ١٣٧١ هـ.
(٣) - في مسنده [٢٧٧/١] وغيره.
(٤) - في كتابه (تاريخ الإسلام) [٢٢/١]، والحديث رواه مسلم.

٢) من معجزات الولادة:

لما كان رسول الله ﷺ خاتم النبيين، وكان وجوده خيراً ورحمة للعالمين، فلا عجب أن يُحْدِث الله يوم ولادته بشائر ومعجزات تنادي بعظمته، وتعلن بفضله، وقد وقع يوم مولده ﷺ من ذلك أمور كثيرة، منها:

أ ـ ما رواه ابن سعد (١) أن أمّه آمنة بنت وهب قالت: لقد علقتُ به (حملت به) فما وجدت مشقة حتى وضعته، فلما فُصِل مني، خرج معه نور أضاء له ما بين المشرق إلى المغرب.

ب ـ وروى أبو نعيم (٢) عن عبد الرحمن بن عوف ﷺ قال: كنت لرسول الله ﷺ تِرْباً ـ أي وُلِدْتُ معه ـ وكانت أمي الشفاء بنت عمرو تحدثني عن أم رسول الله ﷺ قالت: لما وَلَدَت آمنةُ محمداً ﷺ، وقع على يديّ فاستهلّ ـ صرخ ـ فسمعتُ قائلاً يقول: رحمك ربّك، قالت الشفاء: فأضاء لي ما بين المشرق والمغرب، حتى نظرت إلى بعض قصور الشام.

---

(١) ـ في الطبقات [٨٣/١].
(٢) ـ في دلائل النبوة [٤٠/١].

ج ـ وقال السيوطي في الخصائص الكبرى [1] أخرج ابن سعد عن أبي العجفاء ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: (رأت أمي حين وضعتني سطع منها نور أضاءت له قصور بُصْرى).

ولا غرابة في حدوث ذلك ولا في أكثر منه، فقد حدث نحوه لإخوانه النبيين من قبله، فكان لموسى عليه الصلاة والسلام يوم مولده أن حفظه الله تعالى من فرعون: {**يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ**} [2] وقذفت به أمه بعد ولادته في البحر، ليسلم من فرعون وكيده: {**فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي اليَمِّ وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي، إِنّا رَادّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الـمُرْسَلِين، فَالتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً**} [3] {**وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَاب**} [4].

وكان لعيسى عليه الصلاة والسلام يوم مولده معجزة من معجزات الكون الباهرة، فولد من غير أب، وأخرج الله لأمه ثمر النخلة، وأجرى من تحتها الماء، وأنطق ولدها بالدفاع عنها،

---

(١) - [٤٦/١].
(٢) - [القصص ٤].
(٣) - [القصص ٧ و٨].
(٤) - [غافر ٣٧].

وأكرمها ببراءتها من السوء، وسجّل خبر هذه المعجزات في القرآن الكريم آيات تُتْلى على الدهر، وتُعلَن للأجيال، قال الله تعالى:

{وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ مَرْيَمَ إِذ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً ۞ فَاتّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّا ۞ قَالَتْ: إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيّاً ۞ قَالَ: إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيّاً ۞ قَالَتْ: أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيّا؟! ۞ قَالَ: كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ: هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنّا، وَكَانَ أَمْراً مَقْضِيّاً ۞ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً ۞ فَأَجَاءَهَا الـمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ: يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيّاً ۞ فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلاّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَـرِيّاً ۞ وَهُـزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً ۞ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً، فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ البَشَرِ أَحَداً فَقُولِي: إِنِّي نَذَرْتُ لِلرّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ اليَوْمَ إِنْسِيّاً ۞ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ، قَالُواْ: يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً ۞ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً ۞ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ، قَالُواْ: كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الـمَهْدِ صَبِيّاً؟! ۞ قَالَ: إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً ۞ وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَمَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي

بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً ۞ وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً ۞ وَالسَّلامُ عَلَيّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً ۞ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الـحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُون...} [مريم الآيات: ١٦ ـ ٣٤].

٣) المعجزات ونواميس الطبيعة:

قد يتسرَّبُ إلى بعض ذوي النفوس الضعيفة، أنّ حدوث مثل هذه المعجزات يتنافى مع اطّراد نواميس الكون التي أوجدها الله تعالى آية من آياته الناطقة بوحدانيته، المنادية بعظمته وجبروته، فنقول لهؤلاء:

إن الله جلّت حكمته خلق الكون على أبدع نظام وأجمل شأن، وجعل له نواميس وقوانين تدل باطرادها على حكمة خالقها، وجلالة مبدعها ؛ وهذه النواميس ـ على سعة اطرادها ـ خاضعة لحكم الخالق منشئها الذي أوجدها، وقدر اطرادها إلى أجل قد استأثر بعلمه، وهو إذا شاء سبحانه أطلق بعض عباده المقربين من قيودها، وأخرجهم عن حكمها، وعندها تكون المعجزة للنبي، والكرامة للولي، {**ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ،**

وَاللَّهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيم} [1] ومصداق ذلك ما قصه الله علينا من معجزات المرسلين عليهم الصلاة والسلام التي خَلَّدَتْها آيات القرآن الكريم ؛ فمن ذلك: ما حكاه القرآن عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام: {**قَالُواْ: حَرِّقُوهُ وَانْصُرُواْ آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِين ❀ قُلْنَا: يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيم ❀ وَأَرَادُواْ بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِين ❀**} [الأنبياء ٦٨ ـ ٧٠].

وما حكاه عن سليمان عليه الصلاة والسلام: {**وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا، وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِين ❀**} [الأنبياء ٨١].

وما حكاه عن موسى عليه الصلاة والسلام: {**وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ❀ قَالَ: هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى ❀ قَالَ: أَلْقِهَا يَا مُوسَى ❀ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ❀ قَالَ: خُذْهَا وَلاَ تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَى...**} [طه: ١٧-٢١].

وما حكاه عن عيسى عليه الصلاة والسلام: {... **وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ: أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ**

---

(1) - [الحديد ٢١ والجمعة ٤].

مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللهِ، وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الـمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ، وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيوتِكُمْ...} [آل عمران: ٤٩].

ومن ذلك ما قصّه تعالى عن نوح وصالح وذي النون وزكريا وداود وغيرهم من الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام ومن ذلك ما سنذكره من أنباء معجزات سيد الرسل وخاتم النبيين ﷺ، وسيراه القارئ في مكانه من هذه (القبسات).

ومن ذلك أيضاً تلك الكرامات التي أكرم الله بها بعض عباده الصالحين، وأخبرنا عنها في كتابه المجيد، كقصة أصحاب الكهف، ورزق السيدة مريم، وصاحب سليمان الذي عنده علم من الكتاب، وولادة امرأة زكريا وهي عقيم.

وفي هذه الآيات وأمثالها ما يدمغ رأس المنكر، ويقمع هامة المكابر، ويقضي على باطل الجاحد، لوقوع المعجزات والكرامات قضاء لا يبقي ولا يذر.

٤) رضاعه ﷺ: كان من عادة العرب إذا وُلِدَ لهم ولدٌ أن يلتمسوا له مرضعة في البادية، ليكون أنجب للولد، وأفصح للسانه، ولينشأ قوي البنية، سليم البدن ؛ لأن من يتربى في المدن ينشأ ـ

على الغالب ـ كليل الذهن، فاتر العزيمة، منهوك القوى، وقد كان له ﷺ من تلك العادة العربية نصيب.

روى ابن إسحاق وابن راهويه وأبو يعلى والطبراني والبيهقي وأبو نعيم وابن عساكر والذهبي وابن كثير والقسطلاني والسيوطي عن جعفر بن أبي طالب ﷺ عن حليمة السعدية أم رسول الله ﷺ التي أرضعته قالت:

قدمتُ مكة في نسوة من بني سعد بن بكر نلتمس الرضعاء في سنة شهباء لم تبقِ شيئاً، فقدمتُ على أتانٍ ـ حمارةٍ ـ لي، ومعي صبي لنا، وشارفٌ ـ ناقة هرمة ـ لنا، والله ما تبضُّ بقطرة، وما ننام ليلنا أجمع، من صبيّنا الذي معنا من بكائه من الجوع، لا يجد في ثدْيي ما يغنيه، ولا في شارفنا ما يغذيه، فقدمنا مكة، فوالله ما علمت منا امرأة إلا وقد عُرِض عليها رسول الله ﷺ فتأباه إذا قيل لها: إنه يتيم، وإنما كنّا نرجو كرامة رضاعه من أبيه وكان يتيماً ؛ فلم يبقَ من صواحبي امرأة إلا أخذت رضيعاً غيري، فلما لم أجد غيره قلت لزوجي: والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحبي ليس معي رضيع، لأنطلقنَّ إلى ذلك اليتيم فلآخذنّه، فذهبتُ فأخذته، فجئت به رحلي، فأقبل عليه ثدْياي بما شاء من لبن، فشرب حتى روي، وشرب أخوه حتى روي.

وقام صاحبي ـ تعني زوجها ـ إلى شارفنا تلك، فإذا بها حافل ـ مملوءة الضرع ـ فحلب وشربنا حتى روينا، فبتنا شباعاً رِواءً.

فقال صاحبي: يا حليمة: والله إني لأراك قد أخذت نسمة مباركة، ألم ترَيْ ما بتنا به الليلة من الخير والبركة حين أخذناه؟. فلم يزل الله يزيدنا خيراً.

ثم خرجنا راجعين إلى بلادنا، فوالله لقد خرجتْ أتاني أمام الركب قد قطعتهن، حتى إن صواحبي ليقلن: ويلك أهذي أتانك التي خرجتِ عليها معنا؟. فأقول: نعم، والله إنها لهي، فيقلن: والله إن لها لشأناً، حتى قدمنا أرض بني سعد، وما أعلم أرضاً من أرض الله أجدب منها، فإنْ كانت غنمي لتسرح ثم تروح ـ ترجع ـ شِباعاً لُبّناً ـ مملوءة الضرع من اللبن ـ، فنحلب ونشرب، وما يحلب إنسان قطرة لبن، ولا يجدها في ضرع، فتروح أغنامهم جياعاً، ما تبضُّ بقطرة لبن، وتروح أغنامي شِباعاً لُبَّناً، حتى إنهم ليقولون لرِعائهم: ويحكم، انظروا حيث تسرح غنم حليمة فاسرحوا معها، فيسرحون مع غنمي حيث تسرح، فتروح أغنامهم جياعاً ما فيها قطرة لبن، وتروح غنمي شِباعاً لُبَّناً.

فلم يزل الله يرينا البركة ونتعرّفها، حتى بلغ سنتين، فكان يشبّ شباباً لا يشبّه الغِلمان، فوالله ما بلغ السنتين حتى كان

غلاماً جَفراً ـ قوياً ـ فقدمنا به إلى أمه ونحن أضنّ شيء به مما رأينا فيه من البركة، فلما رأته أمه قلنا لها: دعينا نرجع بابننا هذه السنة الأخرى، فإننا نخشى عليه وباء مكة، فوالله ما زلنا بها حتى قالت: نعم، فسرّحتْه معنا، فأقمنا به شهرين أو ثلاثة، فبينما هو خلف بيوتنا مع أخ له من الرضاعة في بَهْمٍ لنا ـ البهم: أولاد الضأن ـ جاءنا أخوه يشتد ـ يركض ـ فقال: ذاك أخي القرشي قد جاءه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه فشقّا بطنه، فخرجْتُ أنا وأبوه نشتدّ نحوه، فأتيناه وهو قائم منتقع اللون، فاعتنقه أبوه، ثم قال: مالَكَ يابُنيّ؟. قال: أتاني رجلان عليهما ثياب بيض، فأضجعاني فشقّا بطني، فوالله ما أدري ما صنعا، ثم ردّاه كما كان، فرجعنا به معنا، فقال أبوه: يا حليمة: لقد خشيتُ أن يكون ابني قد أصيب، فانطلقي بنا نردّه إلى أهله قبل أن يظهر به ما نتخوّف، قالت حليمة: فاحتملناه حتى قدمنا به إلى أمه، فقالت: ما ردّكُما به؟. فقد كنتما عليه حريصين، فقلنا: نخشى الأتلاف والأحداث ـ الأخطار ـ فقالت: ما ذاك بكما ! فاصدقاني شأنكما، فلم تدعنا حتى أخبرناها خبره.

قالت: أخشيتما عليه الشيطان؟ كلا والله ما للشيطان عليه سبيل، وإنه لكائن لابني هذا شأن، فدعاه عنكما [١].

٥) طفولته ﷺ:

نشأ عليه الصلاة والسلام ـ مع يتمه ـ مَرْعيّاً برعاية الله تعالى، مهذباً أحسن تهذيب، عفيفاً أديباً أميناً، حتى عُرف بين أهله وقومه بذلك، ونال إعجابهم وحبهم، فأكبروا أدبه وخُلقه.

روى السيوطي [٢] عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان أبو طالب يقرّب إلى الصبيان بصحفتهم ـ إناء طعامهم ـ فيجلسون وينتهبون، ويكفّ رسول الله ﷺ لا ينتهب معهم، فلما رأى ذلك عمّه، عزل له طعامه على حدة.

وقال محمد جاد المولى [٣] عاش ﷺ ولم يكن له مؤدب ظاهر يعتني بتثقيفه، أو مُربٍّ معروف يتولى تهذيبه، إلا سلامة الفطرة، وسموّ الغريزة، وطهارة العقيدة، والاعتصام بالفضيلة... ولم يكن ﷺ في نشأته جارياً على المألوف في الصبيان من تأثر

---

(١) قال الذهبي: هذا حديث جيد الإسناد، وقال ابن كثير: وهذا الحديث قد روي من طرق أخر، وهو من الأحاديث المشهورة المتداولة بين أهل السير والمغازي.
(٢) ـ في (الخصائص الكبرى) [٨٢/١].
(٣) ـ في كتابه (محمد ﷺ المثل الكامل).

عقولهم ونفوسهم بما يَرَون ويسمعون ويحسون في بيئتهم، ولو جرى الأمر على ذلك لشارك قومه في تعظيم الأصنام وعبادتها، ولانغمسَ في ضلالات الوثنية وأوهامها، ولكن عناية الله قد تكفلت بتربيته، فنشأ على أكمل ما تتحلى به النفوس من جميل الصفات، وحميد الخصال، لم يسجد لصنم من الأصنام، ولم يشارك قومه في عيد من أعيادهم، ولم يذق لحوم قرابينها، ولا عجب فقد حدّث عن نفسه: **(أدبني ربي فأحسن تأديبي)** (١)

٦) شبابه ﷺ:

قال الحافظ ابن كثير (٢) قال محمد بن إسحاق:" شبّ رسول الله ﷺ يكلؤه الله ويحفظه، ويحوطه من أدناس الجاهلية، لما يريد من كرامته ورسالته، حتى بلغ أن كان رجلاً أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خُلقاً، وأكرمهم حسباً، وأحسنهم جواراً،

---

(١) ـ قال في كشف الخفاء:" رواه العَسكريّ عنْ عليّ ﷺ، وحكم عليه الحافظ ابن حجر بالغرابة في بعض فتاويه، ولكن معناه صحيح، وجزم به ابن الأثير في خطبة النهاية، وأخرجه ابن السمعانيّ بسند منقطع عن ابن مسعود ﷺ، وقال في اللآلئ: معناه صحيح، لكن لم يأت من طريق صحيح، وذكره ابن الجوزي في الأحاديث الواهية، وقال السبط: وصحّحه أبو الفضل بن ناصر، وجعله من معجزات نبيّنا ﷺ". انظر:" كشف الخفاء" ٧٢/١. وتشهد لصحّة هذا الحديث وقائع السيرة النبويّة الشريفة وأحداثها، فقد كان النبيّ ﷺ يحدّث كلّ قوم بلغتهم ولهجتهم. عبد المجيد .

(٢) ـ في كتابه (البداية والنهاية) [٢٨٦/٢].

وأعظمهم حلماً، وأصدقهم حديثاً، وأعظمهم أمانة، وأبعدهم من الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال، تنزّهاً وتكرماً، حتى ما اسمه في قومه إلا" الأمين" لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة.

وكان رسول الله ﷺ يحدّث عما كان الله يحفظه به في صغره وأمر جاهليته فيقول: (لقد رأيتني في غلمان من قريش ننقل الحجارة لبعض ما يلعب الغِلمان، كلنا قد تعرى وأخذ إزاره وجعله على رقبته يحمل عليه الحجارة، فإني لأقبل معهم كذلك وأدبر، إذ لكمني لاكم ـ ما أراه ـ لكمةً وجيعة، ثم قال: شدّ عليك إزارك، قال: فأخذته فشددته عليّ، ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتي، وإزاري عليّ من بين أصحابي).

قال ابن كثير: (وهذه القصة شبيهة بما حصل عند بناء الكعبة حين كان ينقل الحجارة هو وعمه العباس).

والقصة التي يشير إليها ابن كثير رواها البخاري ومسلم في صحيحيهما (١) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال:" لما بنيت الكعبة ذهب رسول الله ﷺ ينقل الحجارة، فقال العباس لرسول الله ﷺ: اجعل إزارك على عاتقك من الحجارة، ففعل فخرّ إلى الأرض،

(١) ـ البخاري [٢١٣/٩] ومسلم [٣٣/٤].

وطمحت عيناه إلى السماء، ثم قام فقال: إزاري، إزاري، فشَدّ عليه إزاره".

وزاد البيهقي في روايته: إني نهيت أن أمشي عُرياناً.

ومن حفظ الله تعالى إياه ما رواه الحافظ الذهبي (١) عن علي ابن أبي طالب ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ما هممتُ بشيء مما يهمّ به أهل الجاهلية إلا مرتين عصمني الله فيهما: قلت ليلة لفتى من قريش: أبصر لي غنمي حتى أسْمُر هذه الليلة بمكة كما تسمر الفتيان، قال: نعم، قال: فدخلتُ حتى جئت أول دار من دور مكة، فسمعت غناء وعزفاً وصوت دفوف ومزامير، فقلت: ما هذا؟. فقالوا: فلان تزوج فلانة، فجلست لذلك، فضرب الله على أذنيّ فنِمْتُ، فما أيقظني إلا مسّ الشمس، فرجعت إلى صاحبي، ثم فعلت ليلة أخرى مثل ذلك فنمت، فوالله ما هممت بعدهما بشيء من ذلك، حتى أكرمني الله بنبوّته) (٢).

وهذه رعاية من الله عظيمة، ووقاية من الله جليلة، وحفظ ليس فوقه حفظ.

---

(١) - في كتابه (تاريخ الإسلام) [٤٩/١] والسيوطي في كتابه (الخصائص الكبرى) [٨٨/١].

(٢) - قال الحافظ ابن حجر: إسناد هذا الحديث حسن متصل، ورجاله ثقات.

ومن عناية الله به ﷺ قبل النبوة: كراهيته للأصنام. روى ابن هشام (١) في خبر سفره إلى الشام والتقائه بِـبَحيرا الراهب، أن بَحِيرا قال له: يا غلام ! أسألك بحق اللات والعُزى إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه، فقال ﷺ: لا تسألني باللات والعزى، فوالله ما أبغضتُ شيئاً قط بغضهما. (قال ابن هشام: وإنما سأله بحق اللات والعزى لأنه سمع قومه يحلفون بهما.

وقال القاضي عياض (٢): وإنما سأله بحق اللات والعزى اختباراً لنبوّته).

يتبين لك من هذا أن النبي ﷺ لم يكن يكره الأصنام لأنه نشأ يتيماً فلم يجد من أهله أحداً يذهب به إليها ليعبدها وليجثو أمامها، وإنما كانت كراهيته لها عنايةً من الله وحفظاً، وتكريماً له من أن يركن إلى شيء من أدناس الجاهلية وأوضارها.

وما كانت كراهيته للأصنام ومقته لها ناشئاً مما وجد عليه نفسه من الفقر واليتم، وما رأى عليه أترابه من أبناء الأغنياء من الرفاهية والغنى، والتقلب في أثواب الدّمَقْس والحرير، وما

---

(١) - في (السيرة النبوية) [١٩٣/١].
(٢) - في كتابه (الشفاء) [١٠٦/٢].

كانت كراهيته للأصنام ناشئة عن اعتقاده بها أنها كانت تحابي أناساً وتظلم أناساً، فإنه ﷺ لم يكن يعتقد فيها ألوهية ولا زُلفى، ولا يرى في يدها قبض رزق ولا بسطه، ولم يكن لها في نفسه مكانة ولا قدسية، ولا مرّ بخاطره يوماً أنها تضرّ أو تنفع، حتى ينقم عليها من أجل هذا أو ذاك، إنما كانت نقمته عليها وكراهيته لها لِما رأى عليه قومه من سفاهة الأحلام، وحقارة الرأي، عاكفين على عبادة أحجار ينحتونها بايديهم ثم يعبدونها رجاء نفع أو مخافة ضرٍّ، فقد صانه الله تعالى من أن يتلوّث بما أصيب به قومه، تمهيداً للرسالة العظمى، والدعوة إلى الهدى ودين الحق، وتنزيهاً لأفضل مخلوق، واصطفاءً لأكرم رسول أن تمسه آثار الوثنية وآثامها، {**اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الـمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النّاسِ، إِنّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِير**} [الحج: ٧٥].

وأما تحكيمه ﷺ في بناء البيت، وأمر الحجر الأسود، وحلّ مشكلة الخلاف التي كادت تُفضي إلى اشتعال الفتنة وإراقة الدماء، فقد طار في الآفاق ذكره، وانتشر على الألسنة خبره، وظهر به فضله ظهور الشمس في وضح النهار، ودلّ على رجاحة عقله، وحصافة رأيه، ونبالة حكمته.

ونسوقه هنا مختصراً عن (السيرة النبوية) لابن هشام [1] قال: (... إن القبائل من قريش جمعت الحجارة لبناء الكعبة، ثم بنوها حتى بلغ البنيان موضع الحجر، فاختصموا فيه، كلّ قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى، حتى انحازت كل قبيلة إلى جهة، وتحالفوا واستعدوا للقتال، فقرّبت بنو عبد الدار جفنة ـ قصعة ـ مملوءة دماً، ثم تعاقدوا هم وبنو عدي بن كعب بن لؤي على الموت، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة، فسُمّوا لَعَقة الدم، فمكثت قريش على ذلك أربع ليالٍ أو خمساً، ثم اجتمعوا في المسجد وتشاوروا، فقال أبو أمية بن المغيرة ـ وكان عامئذٍ أسنَّ قريش كلها ـ: يا معشر قريش ! اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضي بينكم فيه، ففعلوا، فكان أول داخل عليهم رسول الله ﷺ، فلما رأوه قالوا: هذا الأمين، رضينا ! هذا محمد ! فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر، فقال ﷺ: هلمّ إليّ ثوباً، فأتي به، فأخذ الحجر فوضعه فيه بيده، ثم قال: (لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم ارفعوه جميعاً، ففعلوا، حتى إذا بلغوا به موضعه، وضعه هو بيده، ثم بنى عليه).

---

(١) - [٢٠٩/١].

ينبئك هذا الحادث الجلل أنه ﷺ كان مشهوراً بين قومه بالأمانة ونصاعة الرأي، وسداد الحكم، فقد كان في رأيه الحصيف الذي أبداه حقن لدماء الجماعة، وجمع لشملها وكلمتها، كما ينبئك عن ارتياحهم العظيم حين طلع عليهم، فهتفوا جميعاً: هذا الأمين، رضينا !.

وكما عُرِف ﷺ بين قومه بالأمانة، فقد عُرِف بالصدق واشتهر به.

روى الإمام البخاري (١) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت: {**وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِين**}، صعِد النبي ﷺ على الصفا فجعل ينادي: يا بني فهر، يا بني عدي ـ لبطون قريش ـ حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال النبي ﷺ: (أرأيتكم ـ أخبروني ـ لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقيّ)؟. قالوا: نعم، ما جربنا عليك كذباً، ما جرّبنا عليك إلاّ صدقاً، قال: (فإني نذيرٌ لكم بين يدي عذابٍ شديدٍ)، فقال أبو

(١) - [١٠١/١٩] و [٧/٢٠] والإمام مسلم [٨٢/٣].

لهب: تبّاً ـ هلاكاً ـ لك، ألهـذا جمعتنـا.؟ ثم قام، فنزلت: {**تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۞ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ.**} [سورة المسد].

٧) ما من نبي إلا وقد رعى الغنم:

جعل الله تعالى رعاية الغنم سُنّة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، تدريجاً لهم ليكونوا بعدها رعاة الأمم، وساسة البشر، وقادة الإنسانية، ودعاة الرحمة والسلام، وخصّهم بها قبل النبوة ليحصل لهم التمرّن برعي الغنم على ما سيكلفون به من القيام بأمر أممهم، ولأن في مخالطتها ما يبعث فيهم الحلم والشفقة والصبر على الأمة، والسهر على مصلحتها، والتيقظ لدفع عدوّها، فيحصل لهم بذلك التدرج من رعاية الغنم، إلى رعاية الأمم.

فليس الرعي إذن منهم وليد حاجة أو فقر، فما كان الله ليجعل رسله أَسرى فاقة وإملاق، إنما هو تربية وتهيئة لنفوسهم الزكية، ليصبروا على ما يلاقونه في الدعوة من عنت ومشقة، وما تحتاجه رعاية الأمم من عطف ورحمة وصبر وأناة، فكانت هذه السُنّة لهم مدرسة نبوية يتعلمون فيها معالجة الناس، وسياسة العباد، والأخذ بأيديهم من مهاوي الشقاء إلى معارج السعادة وظلال النعيم.

ويسجل القرآن الكريم هذه السنّة في الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فيقول في سورة طه: {**وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى؟ ۞ قَالَ: هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى ۞**} [طه: ١٧ و١٨].

وقد ثبت في الحديث الذي رواه الإمام البخاري (١) من حديث عبدة بن حَزْن ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (بُعِث موسى وهو راعي غنم، وبُعث داود وهو راعي غنم).

ولِما لرعاية الغنم من الأثر البيّن في تكوين النفوس وتهيئة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لما يُلقى إليهم من النبوة والتبليغ، جعلها الله سنّة ماضية على أنبيائه ورسله، ولم يُعْفِ نبياً منها، حتى أفضل أنبيائه وخاتم رسله، محمداً ﷺ.

روى الإمام البخاري في صحيحه (٢) عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: (**ما بعث الله نبياً إلاّ رعى الغنم**)، فقال له أصحابه: وأنت يا رسول الله؟. قال: (**نعم، وأنا، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة**).

---

(١) ـ في كتابه: (الأدب المفرد) [ص٨٥] والإمام النسائي وغيرهما.
(٢) ـ [٣٦٣/٤] والحافظ ابن ماجه في كتابه (السنن) [٤/٢].

وجاء في الحديث الذي رواه البخاري والنسائي: (وبعثتُ وأنا أرعى غنم أهلي بجياد) (١).

ونقول: سواء أكانت (قراريط) اسم موضع، أم اسم نوع من النقد، وأخذها الرسول عليه الصلاة والسلام أجرة على رعيه، فلا غضاضة في ذلك أبداً، فهذا موسى يؤجر نفسه من شعيب عليهما الصلاة والسلام، كما يقص القرآن الكريم علينا: {**قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ، فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ**} [القصص: ٢٧].

والأنبياء عليهم الصلاة والسلام جاءوا دعاة عمل وسعي، لا دُعاة بطالة واستكانة.

على أن العرب كانت حياتهم قائمة على الغنم ورعايتها، فكان أكثر فتيانهم وناشئتهم يمرون بمرحلة الرعي، ويرعون الغنم

---

(١) - و (جياد) اسم مكان بأسفل مكة، وكذلك (قراريط) اسم موضع بمكة قرب جياد فيما قاله إبراهيم الحربي، والحافظ ابن ناصر، وابن الجوزي، وخطأوا من يفهم أن (قراريط) جمع للقيراط الذي هو جزء من الدينار أو الدرهم، قالوا: لأنه عليه الصلاة والسلام ما كان يرعى بالأجرة لأهله، فيتعين أنه أراد المكان، فعبر تارة بجياد، وتارة بقراريط لتجاورهما. قال العيني في شرح صحيح البخاري [٨٠/١٢] بعد أن أيّد ما قاله الحربي بما يطول نقله: وإذا كان كذلك فلا دخل للقراريط من النقد في هذا الموضع. ونَقَل عن بعض العلماء أن قراريط جمع للقيراط الذي يكون من الفضة، فتكون أجرةً لا اسم موضع.

لأهلهم ولغيرهم، سواء أكان آباؤهم من أثرياء القوم أم من أوساطهم. فقد روي عن عبد الرحمن بن حاطب قال: أقبلنا مع عمر بن الخطاب أمير المؤمنين قافلين ـ راجعين ـ من مكة، حتى إذا كنا بشعاب ضجنان ـ جبل بناحية مكة ـ قال: لقد رأيتُني في هذا الوادي أرعى إبلاً للخطاب، وكان فظاً غليظاً يتعبني إذا عملت، ويضربني إذا قصّرت، ثم أصبحت اليوم يَضرب ـ يمشي ـ الناس بجَنباتي، ليس فوقي أحد، وليس دون الله أحد أخشاه (١).

وقد أخبر عن نفسه ﷺ أنه رعى الغنم أيضاً لغير أبيه ؛ عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه نادى يوماً: الصلاة جامعة، فلما اجتمع الناس صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:" أيها الناس ! لقد رأيتُني وأنا أرعى على خالات لي من بني مخزوم، فكنت أستعذب لَـهُنَّ الماء، فيقبضن لي القبضة من التمر أو الزبيب..."، ثم نزل فقال له عبد الرحمن بن عوف ﷺ: ما أردتَ بهذا يا أمير المؤمنين؟. فقال: خلوتُ بنفسي فقالت لي: أنت أمير

(١) ـ رواه ابن سعد في الطبقات [١٩١/٣] والمحب الطبري في (الرياض النضرة في مناقب الصحابة العشرة) [٥٠/٢].

المؤمنين، وليس بينك وبين الله أحد، فمن ذا أفضل منك؟. فأردت أن أعرّفها قدرها !" (١)

ويبدو لك واضحاً أنه لا يراد بهذه التعابير كلها معنى الرعي الحقيقي الذي هو: إطعام الماشية العشب، ولكنهم إنما أطلقوا هذه الألفاظ على هذه المعاني متأثرين بحياتهم وبيئتهم وصناعتهم التي كانت تشغل أكثر وقتهم، وتستنفد جلَّ فراغهم ؛ وهي رعاية الغنم وما إليها.

---

(١) - رواه ابن سعد [٢١٠/١] والمحب الطبري [٥٠/٢] وغيرهما، ومعنى (أرعى على خالات لي): أرعى لهنّ، قال الجوهري في الصحاح: (وفلان يرعى على أبيه: أي يرعى غنمه)، وهذا نص لغوي وشاهد آخر غير الذي قدمناه، يفيد أن العرب كانت تعهد لأبنائها برعاية الغنم، وأنه ليس في رعيها الغنم أيّ غضاضة، وأن الرعي عندها ما كان من مِهن العبيد. على أن من ينظر في معاجم اللغة ويتأمل فيها مادّة (الرعي) يجد العرب قد تصرفوا في هذه المادة تصرفاً كبيراً، وتوسعوا في استعمالها توسعاً بالغاً يدل على أن الرعي وما إليه كان مالكاً سمعهم وبصرهم، وآسراً بيانهم وخيالهم، ولا عجب، فقد كان الرعي وسيلة حياتهم ومعاشهم، فقالوا: رعاك الله، وأحسن رعايتك، وهو راعيهم، والخلق رعيته ورعاياه، واسترعى اللهُ خليفتَه خليقتَه وقالوا: رعيتُ له عهده وحرمته، وما أرعاك للعهود ! وراعاه: لاحظه محسناً إليه، وقالوا: رعى النجوم رعياً: راقبها وتأمل فيها، وانتظر مغيبها، كراعاها، واسترعاه بنيه: استحفظه إياهم. وقالوا للحاكم والأمير: راعٍ، كما قالوا للمرأة: راعية البيت. وفي الحديث الشريف الذي رواه البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عمر ﷺ: (كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته: الإمام راعٍ ومسؤول عن رعيته، والرجل راعٍ في أهله ومسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها، والخادم راعٍ في مال سيده ومسؤول عن رعيته، والولد راعٍ في مال والده ومسؤول عن رعيته، فكلكم راعٍ ومسؤول عن رعيته).

فليس إذن في رعاية الغنم أيّ منقصة أو حِطّة، وليس فيها أدنى شيء من امتهان أو ضعة.

٨) تبشير الكتب السماوية به ﷺ:

عن محمد بن إسحاق أنه قال:"... وكانت الأحبار من اليهود والرهبان من النصارى قد تحدثوا بأمر رسول الله ﷺ قبل مبعثه لـمَّا تقارب زمانه عما وجدوه في كتبهم من صفته وصفة زمانه، وما كان من عهد أنبيائهم إليهم فيه.

قال الله تعالى: {**الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ، يَأْمُرُهُمْ بِالـمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الـمُنْكَرِ، وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الـخَبَائِثَ، وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ، فَالّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ، أُوْلَئِكَ هُمُ الـمُفْلِحُون**} [الأعراف ١٥٧] (١).

قال العلامة الشيخ محمد الخضر حسين: (فهذه الآية صريحة في أن المصطفى ﷺ مكتوب في التوراة والإنجيل، والمراد بكتابته فيهما ذِكرُ مبعثه ودعوته وشيء من نعوته، وهذا المعنى

(١) ـ نقله الحافظ ابن كثير في كتابه (البداية والنهاية) [٣٠٦/٢].

موجود في الكتابين يقيناً، فقد نزلت الآية على مسمعٍ من علماء الأمتين: اليهودية، والنصرانية، فمنهم من يؤمن به عليه الصلاة والسلام، ويخبر بما في كتبهم من ذكره بصفته وعلاماته، ومنهم من لا ينكر أن يكون قد ذُكر في الكتابين رسولٌ بهذه النعوت والعلامات، ولكنه يكابر في أن المراد منه محمدٌ صلوات الله وسلامه عليه، ويقول: المقصود منه نبي آخر.

وفي مثل هؤلاء نزل قوله تعالى: {**الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ، وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُون**} [البقرة: ١٤٦].

وقال U: {**وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ: يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَد...**} [الصف: ٦].

وقال تعالى: {**مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ، تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَاناً، سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُود، ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ، كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ (١) فَآزَرَهُ (٢)**

---

(١) - سنبله.
(٢) - قواه.

فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الكُفَّار، وَعَدَ اللهُ الّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأْجْراً عَظِيما} [الفتح: ٢٩].

وقال تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ (١) مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَة، ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ، قَالَ: أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي (٢) قَالُواْ: أَقْرَرْنَا، قَالَ: فَاشْهَدُواْ، وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِين} [آل عمران: ٨١].

وعن ابن عباس ﷺ قال: (ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه الميثاق، لئن بُعِثَ محمدٌ ﷺ وهو حي ليؤمنَنّ به ولينصرنّه، وأمره أن يأخذ على أمته الميثاق، لئن بُعِثَ محمدٌ ﷺ وهم أحياء ليؤمنُنّ به ولينصرُنّه وليتّبعُـنّه) (٣).

قال الحافظ ابن كثير بعد أن روى هذا الخبر: (يُعلم من هذا أن جميع الأنبياء بشّروا به، وأمروا باتّباعه) (٤).

---

(١) - لَمَهْمَا آتيتكم.
(٢) - عهدي.
(٣) - رواه الإمام البخاري في صحيحه.
(٤) - [٣٠٦/٢].

وقد قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام، فيما دعا به لأهل مكة: {**رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ، يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ، وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالـحِكْمَةَ، وَيُزَكِّيهِمْ، إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الـحَكِيم**} [البقرة: ١٢٩].

عن العرباض بن سارية ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (أنا دعوة إبراهيم، وبشارة عيسى، ورؤيا أمي التي رأت..) (١).

وروى الحافظ ابن كثير أيضاً (٢) عن ابن عباس ﷺ قال:

(كانت اليهود بخيبر تقاتل غطفان، فكلما التقوا هُزِمت يهود خيبر، فعاذت اليهود بهذا الدعاء، فقالوا:" اللّٰهُمَّ نسألك بحقّ محمد النبي الأميّ الذي وعدتنا أن تخرجه في آخر الزمان، إلا نصرتنا عليهم"، قال: فكانوا إذا التقوا دعوا بهذا الدعاء، فهزموا غطفان، فلما بُعِث النبي ﷺ كفروا به، فأنزل الله U: {**وَلَمَّا جَاءَهُم كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ، وَكَانُواْ مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ، فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الكَافِرِين**} [البقرة ٨٩].

---

(١) - رواه الإمام أحمد في مسنده [١٢٧/٤] والحاكم في المستدرك [٦٠٠/٢] والبيهقي.

(٢) - في (البداية والنهاية) [٣٠٨/٢].

وروى الإمام البخاري في صحيحه (١) عن عطاء بن يسار قال:" لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص ـ وكان يقرأ التوراة ـ فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ، قال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: **(يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وحِرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتُك المتوكل، ليس بفظٍّ، ولا غليظ، ولا صخاب في الأسواق ـ والصخب: الصياح ـ ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملّة العوجاء، بأن يقولوا: لا إلٰه إلا الله، ويفتح به أعيناً عمياً، وآذاناً صُمًّا، وقلوباً غُلفاً)**.

فهذه نصوص جلية صادقة قاطعة تثبت أن ذكر رسول الله ﷺ موجود في الكتب السماوية السابقة، وأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بشّروا به، وأمروا أممهم باتّباعه، فليس إلى إنكار نبوته وعموم رسالته من سبيل.

٩) قبل البعثة:

---

(١) - [١٩/١٧٧].

أمضى سيدنا محمد ﷺ نحو الأربعين من عمره بين قومه معروفاً بينهم بالصدق، والنباهة، ورجاحة العقل، ونصاعة الذهن، وصفاء الفطرة، وكمال الخُلق، ويمن النقيبة، وطيب المخبر، وهذه الخصال الكريمة على سموّها وعلوّها لم تكن كافية لتحمّل النبوة وتبليغ الرسالة التي أراد الله تعالى أن يختصه بها، وأنها الرسالة: هداية البشر وإنقاذ الأمم، تنوء بها قوى الإنسان، وتعجز عن القيام بها كواهل أولي الجلادة والصبر، إلا أن يكون هناك عون من الله لحاملها وتأييد لمبلّغها، فكان من تمام الإعداد لحمل هذه الأمانة الجُلّى أن تتقدمها خوارق باهرة، وبشائر ظاهرة، تشد عزم المخصوص بها والمراد لها، وتثبّت فؤاده، وتمهد فيه لتلقي الرسالة والنهوض بها والدعوة إليها، فتكون نفسه بنبوّته أوثق، وعلمه برسالته أصدق، فلا يعترضه وهمٌ، ولا يخالجه ريب، فيجهر قائلاً: (**والله ! لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر أو أهلك دونه ما تركتُه**).

ومن هذه البشائر الممهّدة للرسالة العظمى والسِّفارة العليا ما روت عائشة رضي الله عنها قالت: (أول ما بُدئ به رسول الله

ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، حتى فجأه الحق ـ أتاه الوحي ـ) (١).

عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **(إني لأعرف حجراً بمكة، كان يسلّم عليّ قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن)** (٢).

هذا وما إليه مما سنقصه عليك تكريم من الله تعالى لرسوله ﷺ، وتأهيل له لتحمل ذلك العبء الثقيل، {**إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً**} [المزّمل ٥].

١٠) بعثته ﷺ:

وما زالت هذه البشائر تتوالى حتى أكرمه الله تعالى بالنبوة، فنزل عليه الوحي وهو في غار حراء، على رأس الأربعين من عمره، معلناً له أنه رسول الله إلى الناس، تالياً عليه قوله تعالى: {**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۞ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۞ الَّذِي عَلَّمَ بِالقَلَمِ ۞ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ ۞**} [العلق ١ ـ ٥]، فرجع بها ﷺ يرجف فؤاده حتى دخل على

---

(١) ـ رواه البخاري [٤٦/١] ومسلم [١٩٧/٢].
(٢) ـ رواه مسلم [٣٦/١٥].

خديجة، فقال: زمِّلوني، زمِّلوني ـ لفّوني في ثيابي ـ فزمّلوه حتى ذهب عنه الروع، فأخبر خديجة الخبر، وقال: لقد خشيت على نفسي، فقالت:" كلا ! والله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكلّ ـ تعين الضعيف ـ وتكسب المعدوم ـ الفقير ـ وتقري الضيف ـ تكرمه ـ وتعين على نوائب الحق ـ حوادث الخير ـ".

ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل، وكان امرءٌ تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، ويكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، فقالت له خديجة: يا ابن عم ! اسمع من ابن أخيك، فقال ورقة: ما ترى؟. فأخبره رسول الله ﷺ خبرَ ما رآه، فقال له ورقة: هذا الناموس ـ الوحي ـ الذي أُنزل على موسى، يا ليتني فيها جَذَعاً ـ شاباً ـ ليتني أكون حياً إذ يُخرجك قومُك، فقال رسول الله ﷺ: (أوَ مُخرجيَّ هم)؟. قال: نعم لم يأتِ رجل قط بمثل ما جئتَ به إلا عودي، وإنْ يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً ؛ ثم لم ينشب ـ يلبث ـ ورقة أن توفي (١).

---

(١) ـ رواه البخاري [٤٦/٢] ومسلم [١٩٧/٢].

ثم تتابع على النبي ﷺ نزول الوحي بالقرآن الكريم تأييداً للدعوة الخالدة، وبياناً لأحكام هذا الدين الحنيف.

١١) لم يأخذ من كتاب، ولم يتلق من بشر:

يزعم بعض أعداء الإسلام أن النبي ﷺ اتصل بأحبار اليهود، وقس النصارى، وتلقى منهم، وأخذ عنهم، وهو زعمٌ باطل، وافتراء أثيم، ينادي على بطلانه ما هو ثابت ومقطوع به من أن النبي ﷺ نشأ أمياً، معروفاً بذلك بين عشيرته وقومه.

قال القاضي عياض (١) (وهو ﷺ رجل ـ كما قال الله تعالى ـ أُمّيّ، لم يكتب ولم يقرأ، ولا عُرف بصحبة مَن هذه صفته ـ أي الكتابة والقراءة ـ، ولا نشأ بين قوم لهم علم ولا قراءة لشيء من هذه الأمور، ولا عُرف هو قبل ذلك بشيء منها، قال الله تعالى: {**وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ، إِذاً لارْتَابَ الـمُبْطِلُون ۞ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُواْ العِلْم، وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُون**}[العنكبوت: ٤٨].

إنما كانت غايةُ معارف العرب النسبَ وأخبار أوائلها، والشعر والبيان، وإنما حصل لهم ذلك بعد التفرغ له، والاشتغال

---

(١) ـ في كتابه (الشفاء) [٢٩٩/١].

بطلبه، ومُباحثة أهله عنه ؛ وهذا الفن نقطة من بحر علمه ﷺ ؛ ولا سبيل إلى جحد الملحد لشيء مما ذكرناه، ولا وجد الكفرة حيلة في دفع ما قصصناه إلا قولهم: أساطير الأولين، وإنما يعلمه بشر، فردّ الله قولَهم بقوله: {**قُلْ: نَزَّلَهُ رُوحُ القُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُواْ، وَهُدىً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِين ۞ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ، لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِين**} [النحل: ١٠٣].

ثم ما قالوه مكابرةٌ للعِيان، فإن الذي نسبوا تعليمه إليه إما سلمان الفارسي، أو العبد الرومي ؛ وسلمان إنما عرفه رسول الله ﷺ بعد الهجرة، وبعد نزول الكثير من القرآن الكريم، وظهور مالا يُعَدّ من الآيات ؛ وأما الرومي فكان قد أسلم، وكان يقرأ على النبي ﷺ، وكلاهما أعجمي اللسان، وهم الفصحاء اللُّدُّ والخطباء اللُّسن، قد عجزوا عن معارضة ما أتى به، وعن الإتيان بمثله، بل عن فهم رصفه، وسورةِ تأليفه ونظمه، فكيف بأعجمي ألكَن؟! ولقد كان سلمان أو ذلك الرومي بين أظهرهم يكلمونه مدى أعمارهم.

فهل حكي عن واحد منهم شيء من مثل ما كان يجيء به محمد ﷺ؟.

وهل عُرِف واحد منهم بمعرفة شيء من ذلك؟.

وما منع العدوّ حينئذٍ ـ على كثرة عَدده، ودءوب طلبه، وقوة حسده ـ أن يجلس إلى هذا فيأخذ عنه أيضاً ما يعارض به، ويتعلم منه ما يحتجُّ به على شيعته؟.

وما غاب النبي ﷺ عن قومه، ولا كثرت اختلافاته إلى بلاد أهل الكتاب، حتى يقال: إنه استمدّ منهم. بل لم ينزل بين أظهرهم، ثم لم يخرج عن بلادهم إلا في سفرة أو سفرتين، لم يطل فيهما مُكثه مدةً يُحتمل فيها تعلُّم القليل، فكيف الكثير؟. بل كان في سفره في صحبة قومه، ورفاقة عشيرته، ولم يغب عنهم، ولم يختلف مدةَ مقامه بمكة إلى حبر أو قسّ أو منجم أو كاهن).

وقد كرّر القرآن الكريم إبطال هذه الفرية بقوله: {**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ: إِنْ هَذَا إِلاّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُون، فَقَدْ جَاءُواْ ظُلْماً وَزُورَا ۞ وَقَالُواْ: أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلا ۞ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً ۞**} [الفرقان ٤ـ٦].

١٢) إن محمداً ﷺ رسولٌ وليس بزعيم:

مما أصيب به المسلمون في هذا العصر أنك ترى طائفة من كتابهم ومتأدبيهم الذين كسدت سوق أدبهم وكتابتهم لانحراف الناس عنها، قد لجأوا إلى الكتابة عن الإسلام والرسول عليه الصلاة والسلام، وأصحابه المطهرين، متاجرة بأقلامهم، ومجاراة لما هو مستقر في نفوس المسلمين من الإيمان بالله ورسوله، والتصديق بما جاءت به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فكتبوا في هذا الصدد كتباً ومقالات، سلكوا فيها طريقين: طريقاً ينفّسون بها ما في صدورهم من الكراهية والمجافاة للإسلام وشرائعه، ويزلزلون بها على التدريج قداسة الشرع الإسلامي المستقرة في نفوس بقية أبنائه المسلمين، وطريقاً أخرى يُرضون بها جماعة من القراء والناشئة، الذين لم تصل بهم ثقافتهم بعد إلى الاطلاع على المصادر الإسلامية المعتمدة التي تعرض الإسلام عرضاً صادقاً نقياً، فيستغلّ هؤلاء الكتّاب تهافُت أولئك القراء على كل ما هو إسلامي رفيع، ويدسّون لهم في ثنايا ما يكتبون ضروباً من الشوك والشبهات في عقائدهم وشرائع دينهم، متظاهرين لهم بالأمانة في البحث، والإخلاص للحقيقة. وندع الكلام عن هؤلاء الكتاب لسماحة شيخ الإسلام العلامة، الشيخ

مصطفى صبري حفظه الله، إذ يتحدث عنهم (١) فيقول ما ملخصه:

" وأبرز مميزات هؤلاء الكتاب أنهم ينكرون المعجزات الكونية، ويعتبرونها من المستحيلات، ويسعون أن يقيموا مقام نبوة سيدنا محمد ﷺ عبقرية يجعلونها موضع عنايتهم، ويكتبون عنها بدلاً من النبوة، فينجلي من هذا أن تخصيصهم العبقرية بالبحث والدرس، ناشئ من عدم كون نبوته ﷺ متيقنة عندهم تيقن عبقريته، وإلا فما الذي دفعهم إلى هذا التخصيص الرامي إلى إنساء نبوته في ترويج عبقريته، إن لم تكن العبقرية أفضل وأسمى من النبوة في نفوسهم، وأسلم من الشبهة عندهم.؟

" وربما يقارنون بين النبوة والعبقرية، مُدّعين للعبقرية الإعجاز اللازم للنبوة، وهذا أوضح دليل على كونهم مجتهدين في إهمال النبوة، وترويج العبقرية بدلاً منها.

ثم قال: ومثل العبقرية في صرف أذهان الناس عن النبوة الزعامة والبطولة وما أشبه ذلك من الألقاب والأوصاف التي يراد بها طمس الأمور الغيبية، فتنهار النبوة وتبقى العبقرية، ويتحقق

(١ ـ في كتابه (القول الفصل، بين الذين يؤمنون بالغيب والذين لا يؤمنون) ص ٧

قول المستشرق مؤلّف كتاب (الأبطال): (محمد البطل في صورة النبيّ) !!

وتبين لك مما قاله سماحة شيخ الإسلام أنّ كل من نَعَتَ النبي ﷺ بالزعامة، أو العبقرية، أو النبوغ... فهو مخطئ غافل، أو عدوّ مخاتل، يريد أن يصرف أذهان الناس عن نبوته، ويلفتهم عن رسالته، ويقطع صلتهم بالله التي وصلهم بها رسولهم ﷺ، فكم في الناس زعماء ! وكم فيهم نبغاء ! وكم فيهم عباقرة ! لكن من أين للعبقرية أو الزعامة أن تكسب صاحبها نبوة أو رسالة !؟.

١٣) هرقل يذعن للرسول ﷺ بالنبوّة وينفي عنه الزعامة والملك عن ابن عباس رضي الله عنه أن أبا سفيان أخبره من فيه إلى فيه قال:

(انطلقت في المدة التي كانت بيني وبين رسول الله ﷺ ـ يعني بعد صلح الحديبية الذي كان فيه مهادنة بين المسلمين ـ قال: فبينا أنا بالشام، إذ جيء بكتاب من رسول الله ﷺ إلى هرقل ـ يعني عظيم الروم ـ جاء به دحية الكلبي، فدفعه إلى عظيم بصرى، فدفعه عظيم بصرى إلى هرقل، فقال هرقل:

هل ههنا أحد من قوم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟.

قالوا: نعم.

قال أبو سفيان: فدُعيت في نفر من قريش، فدخلنا على هرقل، فأجلسنا بين يديه، فقال:

أيكم أقرب نسباً من هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟.

فقلت: أنا.

فأجلسوني بين يديه، وأجلسوا أصحابي خلفي، ثم دعا بترجمانه، فقال له:

قل لهم: إني سائل هذا عن الرجل الذي يزعم أنه نبي، فإن كذَبني فكذبوه.

قال أبو سفيان: وأيم الله لولا مخافة أن يؤثر عليّ الكذب لكذبت.

ثم قال لترجمانه: سلْهُ كيف حسبه فيكم؟.

قلت: هو فينا ذو حسب.

قال: فهل كان من آبائه ملك؟.

قلت: لا.

قال: فهل كنتم تتَّهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟.

قلت: لا.

قال: ومن يتّبعه، أشراف الناس أَم ضعفاؤهم؟.

قلت: بل ضعفاؤهم.

قال: أيزيدون أم ينقصون؟.

قلت: لا، بل يزيدون.

قال: هل يرتدّ أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه سخطةً له؟.

قلت: لا.

قال: فهل قاتلتموه؟.

قلت: نعم.

قال: فكيف كان قتالكم إياه؟.

قلت: تكون الحرب بيننا وبينه سِجالاً، يصيب منا ونصيب منه.

قال: فهل يغدر؟.

قلت: لا، ونحن منه في مدة، لا ندري ماهو صانع فيها - فوالله ما أمكنني من كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه -.

قال: فهل قال هذا القول أحد قبله؟.

قلت: لا.

قال لترجمانه: قل له: إني سألتك عن حسبه، فزعمت أنه فيكم ذو حسب، وكذلك الرسل تبعث في أحساب قومها.

وسألتك: هل كان في آبائه ملك؟ فزعمت أن لا.

فقلت: لو كان من آبائه ملك، قلت: رجل يطلب ملك آبائه.

وسألتك عن أتباعه، أضعفاؤهم أم أشرافهم.؟ فقلت: بل ضعفاؤهم، وهم أتباع الرسل.

وسألتك: هل كنتم تتّهمونه بالكذب، قبل أن يقول ما قال.؟ فزعمت أن لا، فعرفتُ أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس، ثم يذهب فيكذب على الله.

وسألتك: هل يرتدّ أحد منهم عن دينه بعد أن يدخله سَخطة له.؟ فزعمت أن لا، وكذلك الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب.

وسألتك: هل يزيدون أم ينقصون.؟ فزعمت أنهم يزيدون، وكذلك الإيمان حتى يتم.

وسألتك: هل قاتلتموه.؟ فزعمت أنكم قد قاتلتموه، فتكون الحرب بينكم وبينه سجالاً، ينال منكم وتنالون منه، وكذلك الرسل تُبتلى، ثم تكون لهم العاقبة.

وسألتك: هل يغدر.؟ فزعمت أنه لا يغدر، وكذلك الرسل لا تغدر.

وسألتك: هل قال هذا القول أحد قبله؟ فزعمت أن لا، فقلت: لو قال هذا القول أحد قبله، قلت: رجل أئتمّ بقول قيل قبله.

قال أبو سفيان: ثم قال ـ يعني قيصر ـ: بِمَ يأمركم؟.

قلت: يقول: اعبدوا الله وحده، ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والزكاة والصدق والعفاف والصلة.

قال: إن يكن ما تقول فيه حقاً، فإنه نبي ؛ وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظنه منكم، ولو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشّمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه، وليبلغن

ملكه ما تحت قدمي، ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ فقرأه، فإذا فيه:

(بسم الله الرحمن الرحيم.

من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم.

سلام على من اتبع الهدى.

أما بعد ؛ فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين، وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيّين ـ أي إثم أتباعك ـ، ويا أهل الكتاب: تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم، أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون).

فلما فرغ من قراءة الكتاب ارتفعت الأصوات عنده، وكثر اللغط، وأمر بنا فأخرجنا، فقلت لأصحابي حين خرجنا: لقد أَمِرَ ـ عَظُمَ ـ أمرُ ابنِ أبي كبشة ـ يعني النبي ﷺ ـ، إنه ليخافه ملك بني الأصفر، فما زلتُ موقناً بأمر رسول الله ﷺ أنه سيظهر، حتى أدخل الله عليّ الإسلام (١).

(١) ـ رواه الإمام البخاري [٧٧/١] و [١٤٢/١٨] والإمام مسلم [١٠٣/١٢].

١٤) من معجزاته ﷺ: قدّمنا لك فيما سبق كلمة عن المعجزة والكرامة، ووعدناك بأن نذكر لك طرفاً من معجزات سيد الرسل محمد ﷺ، وقبل أن نورد شيئاً من أنباء معجزاته عليه الصلاة والسلام، نحبّ أن نسمعك كلمة القاضي عياض في معنى المعجزة [1] قال:

(اعلم أنّ معنى تسميتنا ما جاءت به الأنبياء **معجزة**، هو أن الخلق عجزوا عن الإتيان بمثلها، والمعجزة على ضربين:

ـ ضَرْبٌ هو من نوع قدرة البشر، طُلِب منهم فعجزوا عنه، وتعجيزهم عنه فعلٌ لله دلّ على صدق نبيه ﷺ، كتعجيزهم عن الإتيان بمثل القرآن...

ـ وضَرْبٌ هو خارج عن قدرتهم، فلم يقدروا على الإتيان بمثله، كإحياء الموتى، وقلب العصا حية، وإخراج ناقة صالح من صخرة، وكلام شجرة، ونبع الماء من الأصابع، وانشقاق القمر.. مما لا يمكن أن يفعله إلا الله؛ فيكون إجراء ذلك على يد النبي من فعل الله تعالى، ويكون تحدّيه من يكذبه أن يأتي بمثله تعجيزاً له).

---

(١) ـ في كتابه (الشفاء) [٢١٢/١].

ومعجزات خاتم النبيين ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ كثيرة جداً، ألّف العلماء فيها كتباً مستقلة، وسمَّوها: (دلائل النبوّة) و (الخصائص النبوية) و (حجّة الله على العالمين)، وما إلى هذه التسميات المشعرة بصدق النبي، ونصاعة المعجزة الدالة على صدق نبوته ﷺ.

وسنكتفي هنا بذكر طرف منها إيثاراً لجانب الاختصار، وتمشياً مع طريقتنا في الإيجاز التي سلكناها في هذه (القبسات).

* ـ القرآن الكريم: هو المعجزة الخالدة على وجه الدهر، والآية الباقية على تمادي الزمن، تتحطم الدهور ولا تفنى عجائبه، وتنقضي السنون ولا تبلى بدائعه، ألّف العلماء في إعجازه وعجائب معانيه كتباً لا يبلغها العدّ، ولا يحيط بها التدوين، وهو لا يزال جديداً على كرّ العصور، وتطاول الأزمنة والأيام ؛ أنزله الله تعالى هدى للعالمين، ومنهاجاً للمتقين، أخرج به الناس من الظلمات إلى النور، وهداهم إلى صراط مستقيم، ألّف به بين قلوب كانت متباغضة متنافرة، ووحّد به بين جموع وأشتات كانت متعادية متناحرة، جعله دستوراً شاملاً كاملاً لمقتضيات الأمم والأزمان، وتحدّى به العرب فرسان الفصاحة والبيان، وهم الخطباء المصاقع، والشعراء البواقع، فخضعت أعناقهم لبلاغته،

وذلت كبرياؤهم لفصاحته، وعجزوا عن الإتيان بآية من مثله: {**قُلْ: لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالـجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً**} [الإسراء ٨٨].

وهذا الوليد بن المغيرة على عتوّه وكبير طغيانه، ونباهة معرفته بالشعر وبليغ القول، تنهار علياؤه، وتذوب غلواؤه، ويخضع صاغراً مستكيناً أمام هذا القرآن الكريم حينما سمع من رسول الله ﷺ قوله تعالى: {**إِنّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي القُرْبَى، وَيَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالـمُنْكَرِ وَالبَغْيِ، يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُون**} [النحل: ٩٠].

فلا يتملك أن يقول:" والله إنّ له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة ـ رونقاً ـ وإن أسفله لـمُغدِق ـ ريّان ـ وإن أعلاه لمثمر، وإنه ليعلو وما يُعلى، وإنه ليحطّم ما تحته، وما يقول هذا بشر (١).

وإنك بعد هذا إذا تأملتَ القرآن الكريم، وجدته قد حوى من العلوم العليا في العقائد والشرائع التي ينتظم بها أمر المعاش وأحوال الناس، وسياسة الدنيا، وحَكَى من أخبار المعاد والمرسلين وأخبار أممهم، والإخبار بالغيوب السابقة والآتية، وما سوى ذلك

---

(١) ـ رواه القاضي عياض في كتابه (الشفاء) [٢٢٠/١] والسيوطي في (الخصائص الكبرى) [١١٣/١].

من العلوم ما أجهز على الشك، ودفن التردد في أنه كلام الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد. هذا والمنزل عليه ﷺ أميّ لم يقرأ كتاباً، ولم يجالس عالماً، نشأ في أمة أمية لا تعرف قراءة ولا كتابة: {**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّـينَ رَسُولاً مِنْهُمْ، يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُواْ مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِين**} [الجمعة ٢].

* ـ انشقاق القمر: عن ابن عباس ﷺ أنه قال:" اجتمع المشركون إلى رسول الله ﷺ، منهم الوليد بن المغيرة، وأبو جهل ابن هشام، والعاص بن أبي وائل، والعاص بن هشام، والأسود بن عبد يغوث، والأسود بن المطلب بن أسد، وزمعة بن الأسود، والنضر بن الحارث، ونظراؤهم كثير، فقالوا للنبي ﷺ: إن كنتَ صادقاً فشُقّ لنا القمر فرقتين، نصفاً على أبي قبيس، ونصفاً على قَيْقُعان، فقال لهم رسول الله ﷺ: (إن فعلتُ تؤمنوا).؟ قالوا: نعم، وكانت ليلة بدر، فسأل رسول الله ﷺ ربَّه U أن يعطيه ما سألوا، فأمسى القمر قد مَثَل ـ صار ـ نصفاً على أبي قبيس، ونصفاً على قَيْقُعان، ورسول الله ﷺ ينادي: (يا أبا سلمةَ بن عبد الأسد، والأرقم بن أبي الأرقم، اشهدوا) (١)

(١) ـ رواه الحافظ أبو نعيم في كتابه (دلائل النبوة) [٩٥/١].

عن ابن مسعود ﷺ من روايات متعددة قال:" انشقّ القمر على عهد رسول الله ﷺ بمكة فرقتين: فرقة فوق الجبل، وفرقة دونه، فقال ﷺ: **(اشهدوا، اشهدوا)**، فقال كفار قريش: سَحَرَكم ابن أبي كبشة، فقال رجل منهم: إنّ محمداً إن كان سَحَرَ القمر، فإنه لا يبلغ من سحره أن يسحر الأرض كلها، فاسألوا من يأتيكم من بلد آخر، هل رأوه؟. فأتوا فسألوهم، فأخبروهم أنهم رأوا مثل ذلك، فقالوا: هذا سحرٌ مستمرّ، فأنزل الله تعالى قوله: {**اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقّ القَمَر ۞ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُسْتَمِرّ ۞**} [القمر: ١ و ٢] (١).

قال الشيخ حمزة فتح الله (٢): **(وقد ذكرَت بعضُ الجرائد الأجنبية مقالة عرّبتْها جريدة (الإنسان) العربية، التي كانت تطبع بالآستانة، حاصلها: أنه عُثر في ممالك الصين على بناء قديم مكتوب عليه أنه بُني عام كذا، الذي وقع فيه حادث سماوي عظيم، وهو انشقاق القمر نصفين، فحرر الحساب، فوافق انشقاقه لسيدنا رسول الله ﷺ).**

---

(١) - رواه الإمام البخاري [٢٠٦/١٩] والإمام مسلم [١٤٤/١٧].
(٢) - في كتابه (باكورة الكلام على حقوق النساء في الإسلام) [ص٤١].

* ـ تكثير الطعام القليل: عن جابر بن عبد الله ﷺ قال:" لما حُفِر الخندق رأيت برسول الله ﷺ خَمَصاً ـ جوعاً ـ شديداً، فانكفأْتُ ـ رجعْتُ ـ إلى امرأتي فقلت: هل عندك شيء.؟ فإني رأيت رسول الله ﷺ خَمَصاً شديداً، فأخرجَتْ لي جراباً ـ كيساً ـ في صاع من شعير، ولنا بُهَيْمة ـ سخلة ـ داجن، فذبحتُها، وطحنَتِ الشعير، ففرغتْ إلى فراغي، وقطّعتُها في بُرمتها ـ قِدْرها ـ ثم ولّيتُ إلى رسول الله ﷺ، فقالت: لا تفضحني برسول الله ﷺ ومن معه، فجئته فسارَرْتـُه، فقلت: يا رسول الله: إنا قد ذبحنا بُهَيْمةً لنا، وطحنّا صاعاً من شعير كان عندنا، فتعالَ أنت ونفرٌ معك، فصاح النبي ﷺ، وقال: (يا أهل الخندق ! إن جابراً قد صنع لكم سُوراً ـ طعاماً ـ فحيَّهلاً بكم ـ هلمّوا مسرعين ـ

وقال رسول الله ﷺ: **(لا تُنْزِلُنّ برمتكم، ولا تخبزُنَّ عجينكم حتى أجيء)** فجئتُ، وجاء رسول الله ﷺ يَقدُم الناس، حتى جئتُ امرأتي، فقالت: بك وبك ـ تذمُّه، حيث أتى بناس كثير، والطعام قليل، وذلك موجب للخجلة.

فقلتُ: قد فعلتُ الذي قلْتِ، فأخرجتُ له عجيننا فبارك فيه، ثم عمَد إلى برمتنا فبارك فيها، ثم قال: ادعي خابزةً فلتخبز معك، واقدحي ـ اغرفي ـ من برمتكم ولا تُنزلوها. وهم ألف،

فأقسمُ بالله لقد أكلوا حتى تركوه وانحرفوا، وإنّ برمتنا لتغِطُّ ـ تغلي وتفور ـ كما هي، وإن عجيننا ليُخبز كما هو".

* ـ نبع الماء من بين أصابعه وتكثيره ببركته ﷺ: وقد تظاهرت الأحاديث في هذه المعجزة تظاهراً مستفيضاً، فرواها الجمّ الغفير، منهم أنس بن مالك، وجابر بن عبد الله، وعبد الله بن مسعود، وعِمران بن حصين ﷺ.

روى الإمام البخاري (١) عن أنس بن مالك ﷺ قال: (خرج النبي ﷺ في بعض مخارجه ـ أسفاره ـ ومعه ناس من أصحابه، فانطلقوا وهم يسيرون، فحضرتِ الصلاة، فلم يجدوا ماءً يتوضأون، فانطلق رجل من القوم، فجاء بقدح من ماءٍ يسير، فاخذه النبي ﷺ فتوضأ، ثم مدّ أصابعه الأربع على القدح ثم قال: (قوموا فتوضأوا)، فتوضأ القوم... وكانوا سبعين.

وقد تكرر وقوع هذه المعجزة العظمى مراتٍ كثيرة في السفر والحضر، فقد روى الإمام البخاري ومسلم والإمام مالك (٢)

---

(١) - [١١٩/١٦].
(٢) - [١١٨/١٦] والإمام مسلم [٣٨/١٥] والإمام مالك في الموطَّأ [٤١/١].

أحاديثَ متعددة في ذلك، وأن القوم مرة كانوا ستين، ومرة كانوا ثمانين، ومرة كانوا ثلاثمائة.

وروى الإمام البخاري [١] عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: عطش الناسُ يوم الحديبية، ورسول الله ﷺ بين يديه ركوة، فتوضأ منها، ثم أقبل الناس نحوه.

فقال رسول الله ﷺ: (مالكم.؟ قالوا: يا رسول الله: ليس عندنا ماء نتوضأ به، ولا نشرب إلاّ ما في ركوتك ! فوضع النبي ﷺ يده في الركوة، فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون، فشربنا وتوضأنا، فقيل لجابر: كم كنتم يومئذٍ؟. قال: لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مائة).

وروى البخاري أيضاً [٢] عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فقلَّ الماء، فقال رسول الله ﷺ: (اطلبوا فضلةً من ماء)، فجاءوا بإناء فيه ماء قليل، فأدخل يده في الإناء فقال: **(حيّ على الطهور المبارك، والبركة من الله)**.

---

(١) - [٢١٤/١٧] والإمام مسلم [٤/١٣].
(٢) - [١٢٢/١٦] والترمذي [١١٤/١٣].

قال عبد الله ﷺ: فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول الله ﷺ.

وروى الإمام البخاري (١) عن عمران بن حصين ﷺ قال: كنا في سفر مع النبي ﷺ.. فاشتكى إليه الناس من العطش، فنزل فدعا فلاناً، ودعا علياً، فقال: (اذهبا فابتغيا الماء)، فانطلقا، فتلقّيا امرأة بين مزادتين أو سطيحتين من ماء على بعير لها.

فقالا لها: أين الماء.؟ قالت: عهدي بالماء أمسِ هذه الساعة ـ أي بُعدي عن الماء يومٌ كامل ـ ونفرُنا خُلوفاً ـ أي كان رجالنا مسافرين ـ قالا لها: انطلقي إذن، قالت: إلى أين.؟ قالا: إلى رسول الله.

قالت: الذي يقال له الصابئ.؟ ـ الذي خرج عن دينه ـ قالا: هو الذي تعنين، فانطلقي، فجاءا بها إلى النبي ﷺ، وحدّثاه الحديث، فاستنزلوها عن بعيرها، ودعا النبي ﷺ بإناء، ففرّغ فيه من أفواه المزادتين (القربتين)، وأوكأ أفواههما، وأطلق العَزَالَى ـ الأفواه السُّفلَى ـ ونودي في الناس: اسقوا، واستقوا، فسقَى من شاء، واستقى من شاء... وهي قائمة تنظر إلى ما يُفعَل بمائها ! وأيم الله،

---

(١) ـ [٤/٢٥] والإمام مسلم [٥/١٨٩].

لقد أُقلِع عنها، وإنه لَيـُخيَّل إلينا أنها أشد ملأة منها حين ابتدأ فيها.

فقال النبي ﷺ: (اجمعوا لها)، فجمعوا لها من بين عجوة ودقيقة وسويقة، حتى جمعوا لها طعاماً، فجعلوه في ثوب، وحملوه على بعيرها، ووضعوا الثوب بين يديها.

قال لها: تعلمين ما رَزِئنا ـ ما نقصنا ـ من مائك شيئاً.؟ ولكن هو الله الذي أسقانا، فأتتْ أهلها، وقد احتبست ـ تأخرت ـ عنهم ؛ قالوا: ما حبسك يا فلانة.؟ قالت: العجب، لقيني رجلان، فذهبا بي إلى هذا الذي يقال له: الصابئ، ففعل كذا وكذا، فوالله إنه لأسحرُ الناس من بين هذه وهذه ـ تعني السماء والأرض ـ أو إنه لَرسول الله حقاً، فكان المسلمون بعد ذلك يُغيرون على من حولها من المشركين، ولا يصيبون الصِّرم التي هي منه.

والصرم: الجماعة ينزلون بإبلهم قريباً من الماء.

فقالت يوماً لقومها: ما أرى (ما أظنّ) أن هؤلاء القوم يدعونكم عمداً، فهل لكم في الإسلام؟. فأطاعوها، فدخلوا في الإسلام.

* ـ حديث الإسراء: قال الله تعالى: {**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً، مِنَ الـمَسْجِدِ الـحَرَامِ إِلَى الـمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِير**} [الإسراء: ١].

وكان إسراؤه ﷺ قبل الهجرة بسنة أو سنتين.

والإسراء: السفر ليلاً ـ وخبره شائع مستفيض، رواه الأئمة، وتناقله الخلف عن السلف، وحكموا على منكِره بالكفر، لوروده في صريح القرآن، وقد تظاهرت الأحاديث الصحيحة بذلك أيضاً، ونحن نقتصر على موضع الشاهد، فنورد طَرَفاً من الحديث، جامعين بين روايات الأئمة الأعلام ؛ وفيها:

(... إن النبي ﷺ صبيحة إسرائه انتهى إلى نفر من قريش، فأخبرهم بإسرائه إلى بيت المقدس، وما أراه الله من آياته ؛ فأعظموا ذلك، وقالوا: صِفْ لنا بيت المقدس، فصُوِّر له حتى أنبأهم بعلاماته).

وفي رواية: (قالوا له: ما آية ذلك يا محمد.؟ فإنا لم نسمع بمثل هذا قطّ، فقال: آية ذلك أني مررتُ بِعير بني فلان بِوادي كذا وكذا، فأنفرهم حسّ الدابّةَ ـ يعني البراق ـ فندّ ـ شرد ـ لهم بعير، فدللتُهم عليه وأنا موجّه إلى الشام، ثم أقبلتُ حتى إذا كنت

بضجنان ـ جبل قرب مكة ـ مررتُ بعير بني فلان، وآية ذلك أن عيرهم الآن تُصَوِّب ـ تجيء ـ من البيضاء ثنية التنعيم، يقدُمها جمل أورق ـ في لونه بياض إلى سواد ـ عليه غرارتان ـ مثنى غرارة، وهي العِدْل ـ إحداهما سوداء، والأخرى برقاء، فابتدر القوم الثنية ـ استبقوا إليها ـ فلم يَلْقَهم أولُ الجمل ـ أي شيء قبله ـ كما وَصفَ لهم، وسألوهم وهم بمكة فقالوا: صدَق والله لقد أُنْفِرنا في الوادي الذي ذكر، وندَّ لنا بعير، فسمعنا صوت رجل يدعونا إليه حتى أخذناه) (١).

١٥) تفضيله على النبيين، وطرف من خصائصه ﷺ:

جرت سنة الله تعالى أن يختار أنبياءه ورسله من أفضل خلقه لديه وأكرمهم عنده، ليكونوا مصابيح أقوامهم وهُداة أممهم، وقدوة صالحة للبشر، وأسوة حسنة للناس. قال تعالى في معرض ذكر الرسل واصطفائهم بالرسالة: {... **وَكُلاً فَضَّلْنَا عَلَى العَالَمِين ۞ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيـَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ، وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم ۞**} [الأنعام: ٨٧ و ٨٨].

(١) ـ من رواية الإمام أحمد وابن أبي شيبة وابن إسحاق والبيهقي وغيرهم.

وكما فضل الله تعالى رسله على العالمين، ميّز بعض رسله على بعض، وسامى بين مراتبهم، قال الله تعالى: {**تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ، مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَات...**} [البقرة: ٢٥٣].

وقال U: {**وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّين عَلَى بَعْض، وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا**} [الإسراء: ٥٥].

* ـ ميثاق النبيين: ولقد كان مما فضّل الله به سيدنا محمداً ﷺ على إخوانه الأنبياء أن جعله أفضل الرسل، وخاتم النبيين، فأخذ له منهم الميثاق والعهد أن يؤمنوا به ويكونوا من أتباعه وأنصاره إذا بُعِث في زمنهم.

روى الإمام البخاري (١) عن علي وابن عباس رضي الله عنهما قالا: (ما بعَثَ اللهُ نبياً، آدم فما بعده، إلا أخذ عليه الميثاق لئن بُعِثَ محمد وهو حيّ ليُؤمنَن به ولينصرَنه، وأمره أن يأخذ العهد على قومه لئن بعث محمد وهم أحياء، ليؤمنُن به ولينصرُنه ولَيَتَّبِعُنَّه، ثم تلا علي ﷺ: {**وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ (٢) مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَة، ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا**

(١) ـ في صحيحه وابن جرير في تفسيره [٢٣٦/٣].
(٢) ـ لَمَهْمَا آتيتكم.

مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ، قَالَ: أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي (١) قَالُواْ: أَقْرَرْنَا، قَالَ: فَاشْهَدُواْ، وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِين} [آل عمران: ٨١].

وإنما أخذ الله العهد له من النبيين، مع علمه تعالى أنهم لا يدركونه، لإظهار فضله عليهم، ورفْع شأنه بينهم، وللتنويه بقدْره، والإشادة بذِكْرِه، فإن الله يعلم أنه خاتم رسله، وآخر أنبيائه عليهم الصلاة والسلام.

وقال تعالى: **{مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ، وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّين، وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً}** [الأحزاب: ٤٠].

* ـ عموم رسالته ﷺ:

ومما خص اللهُ به محمداً ﷺ أن جعل دعوته عامة، ودعوة المرسلين قبله خاصة، قال تعالى: **{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيرا، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُون}** [سبأ: ٢٨].

وقد روى البخاري (٢) عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

---

(١) - عهدي.

(أُعطيتُ خمساً لم يُعطَهنّ أحد قبلي: نُصرت بالرعب مسيرة شهر، وجُعِلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيـُّما رجل من أمتي أدركته الصلاة فلْيُصلِّ، وأُحلّت لي المغانم ولم تَحِلّ لأحد قبلي، وأُعْطِيتُ الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة).

وفي رواية لمسلم [١] عن أبي هريرة ﷺ: (فُضِّلْتُ على الأنبياء بستّ: أُعْطيتُ جوامع الكلم، ونُصِرْتُ بالرعب، وأُحِلَّتْ لِيَ الغنائم، وجُعِلَتْ لِيَ الأرض طهوراً ومسجداً، وأُرْسِلْتُ إلى الخلق كافة، وخُتِمَ بِيَ النبيون).

* ـ شفاعته ﷺ: ومن أعظم خصائصه ﷺ: الشفاعةُ العظمى يوم القيامة، يوم يلجأ الناس إلى الأنبياء مستشفعين بهم إلى ربهم، فلا يجدون لديهم شفاعة، ويُحالون من نبي إلى نبي، حتى يكون سيدُنا محمد ﷺ هو الشفيع المشفَّع، والداعي المجاب.

روى البخاري [٢] عن أبي هريرة وأنس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال:

---

(١) - [٧/٤] ومسلم [٣/٥].
(٢) - [٥/٥].
(٣) - [٢٦/١٩] ومسلم [٦٥/٣] وغيرهما.

(أنا سيّد الناس يوم القيامة، وهل تدرون مِمَّ ذلك؟. يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد، فيُبْصِرُهم الناظر، ويُسْمِعُهم الداعي، وتدنو الشمس من جماجم الناس، فيبلُغ الناس من الغم والكرب مالا يطيقون ولا يحتملون.

فيقول الناس: ألا تَرَوْن إلى ما أنتم فيه؟! ألا تَرَوْن ما قد بلغكم.؟ ألا تنظرون إلى من يشفع لكم إلى ربكم؟! فيقول بعض الناس لبعض: ائتوا آدم ؛ فيأتونه، فيقولون: يا آدم ! أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، وأسكنك الجنة، ألا تشفعُ لنا إلى ربك.؟ ألا ترى ما نحن فيه وما بلَغَنا.؟

فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضبْ قبله مثلَه، ولن يغضبَ بعده مثله، وإنه نهاني عن

الشجرة فعصيتُه، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح.

فيأتون نوحاً، فيقولون: يا نوح ! أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وقد سمّاك الله عبداً شكورا، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟. ألا ترى إلى ما بلَغَنا؟ ألا تشفعُ لنا إلى ربك.؟

فيقول لهم: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضبْ قبله مثلَه، ولن يغضبَ بعده مثله، وإنه قد كانت لي دعوةٌ دعوتُ بها على قومي، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى إبراهيم.

فيأتون إلى إبراهيم، فيقولون: أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول لهم: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضبْ قبله مثلَه، ولن يغضبَ بعده مثله ؛ وإني قد

كنتُ كذبتُ ثلاث كذبات، فذكرها ؛ نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى موسى.

فيأتون موسى، فيقولون: يا موسى ! أنت رسول الله، فضّلك الله برسالاته وبكلامه على الناس، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ اشفع لنا إلى ربك.

فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضبْ قبله مثلَه، ولن يغضبَ بعده مثله، وإني قد قتلتُ نفساً لم أومرْ بقتلها، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى عيسى.

فيأتون عيسى، فيقولون: يا عيسى ! أنت رسول الله وكلِمَتهُ ألقاها إلى مريم وروحٌ منه، وكلّمتَ الناس في المهد صبيًّاً، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟. اشفع لنا إلى ربك.

فيقول عيسى: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضبْ قبله مثلَه، ولن يغضبَ بعده مثله، ولم يذكر

ذنباً، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمد.

فيأتون محمداً، فيقولون: يا محمد ! أنت رسول الله، وخاتم الأنبياء، قد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر، ألا ترى ما نحن فيه.؟ اشفع لنا إلى ربك.

فأقول: أنا لها، فأنطلقُ فآتي تحت العرش، فأقع ساجداً لربي، ثم يفتح الله عليّ، ويلهمني من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبلي، ثم يقال: يا محمد: ارفع رأسك، سَلْ تُعْطَهْ، واشفع تُشَفَّع، فأرفع رأسي، فأقول: أمتي ياربّ ! أمتي ياربّ ! فيقال: يا محمد ! أدخل من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب، والذي نفسي بيده، إنّ بين المصراعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وهَجَر ـ بلد باليمن ـ أو كما بين مكة وبُصرَى ـ بلد بالشام ـ).

١٦) شمائله الكريمة (*) ﷺ: من نظر في سيرته عليه الصلاة والسلام وجدها من أعظم الدلائل على أن بين جنبيه ﷺ نفساً بالغة من الكمال مالا يبلغه الإنسان الذي يطلب المعالي بنفسه ولو بلغ من العبقرية ما بلغ، ولُقِّن من الحكمة ما شاء أن يُلَقَّن، فدونك كتُب التاريخ عربية وغير عربية، طالِعْها وأمعِن النظر في أحوال عظماء الرجال من مبدأ الخليقة إلى هذا اليوم، فإنك لا تستطيع أن تضع يدك على اسم رجل من أولئك العظماء، وتقُصَّ علينا من سيرته ومزاياه وأعماله الجليلة حديثاً يضاهي ما نُحدِّثك به عن هذا الرسول العظيم.

سنُحدّثك عن خُـلُقه وآدابه، ومثابرته على عبادة الله آناء الليل وأطراف النهار، وجميع أحواله الشريفة الباهرة. ولا تنْسَ ـ إلى جانب هذا ـ أنه ﷺ قضى نحو عشر سنين في مناهضة خصومه من مشركي قريش وغيرهم، ولم تشغله تلك المناهضة المستمرّة، وما تستدعيه من تدبير، عن إقباله على العبادة بمجامع قلبه، وعن أن

(*) نرجو من القارئ أن يتدبر بقراءته هذه الشمائل النبوية ـ بصورة خاصة ـ ويتأمل فيما انطوت عليه من أخلاق فاضلة، وعادات كريمة، وسجايا لامعة... ليستفيد منها ويقتبس من سيرة صاحبها عليه الصلاة والسلام ما يقربه من المثل الكامل، ويطبع فيه الأخلاق الكريمة، والآداب الرفيعة.

يتلقَّى عنه الناس أحكام الوقائع في العبادات والمعاملات والجنايات.

وأضف إلى هذا نظره في طُرُق سياسة الأقوام الداخلين تحت لوائه، ونظره في فصل ما يَنْشَبُ بينهم من خصومات، وَضَعْ بجانب هذا ما كان ينطق به من الحِكَم الرائعة، والمواعظ البالغة، واعتبِرْ بعد هذا كله، فيما وهبه الله تعالى من بيان يملك الأسماع ويأخذ بالألباب، فإنك إن تدبّرت هذا الذي أومأنا إليه، لم تتردد في أن تأييد الله تعالى هو الذي رفع صروح هذه السيرة، وجعلها حافلة بتلك المحامد والمفاخر والشمائل التي تنقطع دونها كل سيرة ومَحْمَدَة.

ولقد دوّن العلماء كتباً كثيرة في شمائله وأخلاقه ﷺ وذكروا فيها أحواله المتعلقة بعبادته، وأمْرِه ونهْيِه، ويقظتِه ومنامِه، ومشْيِه وجلوسه، واتكائه، وَصِفَة طعامه وشرابه، ومعاشرته لأهله وأصحابه ؛ ووصفوا فيها سرورَهُ وغضبَه، وضحكَه وبكاءَه، وصَمْتَه ونطقَه، وشجاعتَه، وصبرَه، وكرمَه، وعفوَه، وحياءَه، وتواضعَه، وثيابه ولُبْسَه، ووضوءَه وغُسلَه، وعَيْشَه وهدْيَه كلَّه.

ومن المؤسف أن ترى كثيراً من المسلمين الحريصين على إسلامهم ـ في هذا الزمن ـ لا يعرفون من شمائله الكريمة إلا النزر اليسير الذي لا يخلو عن زَيْفٍ أو مغالاة. ولهذا نُهيب بهؤلاء المسلمين أن يقتنوا ولو كتاباً واحداً في شمائله ﷺ، ليكونوا على معرفة بهدْي رسول الله ﷺ وأحوالِه الخاصة والعامة، فيقتدوا به فيما يأتون وما يذرون، عملاً بقوله تعالى: {**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ، لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَاليَوْمَ الآخِرَ، وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً**} [الأحزاب: ٢١].

وإن من أفضل الكتب التي تحدثت عن سيرته الكريمة ﷺ: كتاب (الشمائل المحمدية) للإمام الترمذي. ونحن نختار منه جُمَلاً نسْردها هنا تنويراً للبصائر، وإرشاداً للعقول، وإفادة للمستهدين والمسترشدين.

(كان ﷺ يتكلم بكلامٍ بَيِّنٍ فصْل، يحفظه مَن جلس إليه، وكان يعيد الكلمة ثلاثاً لِتُعْقَل عنه، وكان طويلَ الصمت، لا يتكلم في غير حاجة، يفْتتح الكلام ويختِمُه باسم الله تعالى، ويتكلم بجوامع الكلم، وكان ﷺ لا تُغْضِبُه الدنيا، ولا ما كان لها، فإذا تُعدي الحقُّ لم يَقُم لغضبه شيء حتى ينتصرَ له، ولا يغضب لنفسه، ولا ينتصر لها.

وكان ﷺ أشجع الناس. قال علي رضي الله عنه: كنّا إذا اشتدّ البأس، واحمرّت الحدَقُ ـ العيون ـ اتَّقينا برسول الله ﷺ، فما يكون أحدٌ أقرب إلى العدوّ منه، ولقد رأيتني يوم بدْرٍ، ونحن نلوذ بالنبيّ ﷺ وهو أقربُنا إلى العدوّ.

وكان ﷺ يقول: **(عليكم من الأعمال ما تطيقون، فإن الله لا يملّ حتى تملّوا، وأَحب العمل إلى الله ما داوم عليه صاحبه وإن قلّ)**.

وكان ﷺ يداعب أصحابه، فقالوا له: يا رسول الله: إنك تداعبنا ! فقال: (نعم، غير أني لا أقول إلا حقاً).

وكان جُلُّ ضَحِكِه التبسّم، يفترُّ عن مثل حَبِّ الغمام، وكان إذا أوى إلى فراشه قال: (الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وآوانا، فكم ممن لا كافيَ له ولا مُؤوي) وكان إذا دخل بيته قال: (هل عندكم طعام.؟) فإذا قيل: لا، قال: (إني صائم).

وانكسفت الشمس يوماً على عهده ﷺ، فقام عليه الصلاة والسلام يصلي وأطال الصلاة، ثم جعل يبكي في سجوده ويقول: (ربّ ألم تعِدْني أن لا تعذّبهم وأنا فيهم؟. ربّ ألم تعِدْني أن لا تعذّبَهم وهم يستغفرون؟. وها نحن نستغفرك)، فلما صلى ركعتين

انجلت الشمس، فقام فحمِد الله تعالى وأثنى عليه، ثم قال: (إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا انكسفا فافزعوا إلى ذكر الله).

وجاءته ﷺ امرأة فقالت له: إن لي إليك حاجة، فقال: (اجلسي في أي طريق المدينة شئتِ أَجلِس إليكِ).

وكان ﷺ لا يأكل متكئاً، ويقول: (برَكة الطعام الوضوء قبلَه والوضوء بعدَه ـ يعني غسل اليدين ـ.

وأرشد إلى آداب الأكل فقال: (سمِّ الله تعالى، وكل بيمينك، وكل مما يليك).

وكان إذا فرغ من طعامه قال: (الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين).

وكان ﷺ إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه، ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر، ويقول: (**السلام عليكم، السلام عليكم**).

وكان ﷺ يحبّ التيامن في الأمور كلها، قال أنس ﷺ: أتانا رسول الله ﷺ في دارنا فاستسقى ـ طلب أن يشرب ـ فحلبنا له شاة ثم شُبتُه ـ أي مزجْتُ الحليب ـ بماء، فأعطيتُ رسول الله ﷺ

فشرب ؛ وكان أبو بكر ﷺ عن يساره، وعمر ﷺ أمامه، وأعرابيٌّ عن يمينه ؛ فلما فرَغَ رسول الله ﷺ من شُرْبه، قال عمر: هذا أبو بكر يا رسول الله ! يريه إياه، فأعطى رسولُ الله ﷺ الأعرابي، وترك أبا بكر وعمر، وقال: (الأيمنون، الأيمنون، الأيمنون). قال أنس: فهي سُنَّةٌ، فهي سُنَّةٌ، فهي سُنَّةٌ.

قال الحسين ﷺ: سألتُ أبي عليَّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه عن مَدْخَلِ رسول الله ﷺ، فقال: كان إذا أوى إلى منزله جزّأ دخولَه ثلاثة أجزاء: جُزءاً لله، وجُزءاً لأهله، وجُزءاً لنفسه، ثم جزّأ جُزْءهُ بينه وبين الناس، فيردّ بالخاصة على العامة ـ أي يَكِلُ تعليم عوام الناس لخواص أصحابه ـ ولا يدّخر عنهم شيئاً، وكان من سيرته في جزء الأمة إيثاره أهلَ الفضل، وقَسْمُهُ الوقت بينهم على قدر فضلهم في الدين، فكان يشتغل بهم ويشغلهم فيما يصلحهم ويصلح الأمة، من مسألته عنهم وإخبارهم بالذي ينبغي لهم، ويقول: **(ليبلغ الشاهدُ منكم الغائبَ، وأَبلغوني حاجةَ من لا يستطيع إبلاغها، فإنه من أبلَغَ سلطاناً حاجةَ من لا يستطيع إبلاغها، ثبَّت الله قدميه يوم القيامة).**

وكان أصحابه ﷺ يدخلون إليه رُوّاداً ـ طالبين الإفادة ـ ولا يخرجون إلا عن ذَواقٍ ـ طعام ـ ويخرجون أدلّةً على الخير ـ أي مطبوعين عليه.

قال الحسين رضي الله عنه: فسألتُ أبي عن مخرجه ﷺ، كيف كان يصنع فيه؟. فقال: كان رسول الله ﷺ يَخزُنُ لسانَه إلا فيما يعنيه، ويؤلّف الناس ولا يُنَفِّرهم، ويُكرم كريمَ كُلّ قوم ويُولّيه عليهم، ويحذّر الناسَ ويحترسُ منهم، من غير أن يطوي عن أحدٍ منهم بِشْرَه وخُلقَه، وكان دائم البشر، سهلَ الخُلُق، ليّن الجانب، وكان ﷺ يتغافل عما لا يشتهي، ولا يؤيِسُ منه راجيه، قد تَرَك نفسه من ثلاث: المِراء، والإكثار، ومالا يعنيه.

وترَك الناس من ثلاث: كان لا يذمّ أحداً، ولا يَعيبُه، ولا يتتبّع عثرته.

وكان يتفقّد أصحابه ويسأل الناس عما في الناس، ويُحَسِّنُ الحسنَ ويُقوّيه، ويُقَبِّحُ القبيحَ ويُوهّيه، معتدلَ الأمر، لا يغفلُ عن تذكيرهم وتعليمهم مخافة أن يغفُلوا أو يميلوا، لكل حالٍ عنده عتاد ـ عُدّة ـ لا يُقَصِّرُ عن الحق ولا يجاوزه، أفضلُ الناس عنده أعمُّهم نصيحة، وأعظمهم عنده أحسنُهم مواساةً ومؤازرة.

قال الحسين ﷺ: فسألتُ أبي عن مَجْلِسِه ﷺ فقال: كان رسول الله ﷺ لا يقوم ولا يجلس إلا على ذِكْر، وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث انتهى به المجلسُ، ويأمر بذلك، يعطي كل واحد من جلسائه نصيبه من البِشْر، لا يحسب جليسُه أن أحداً أكرمُ عليه منه، من جالسه أو فاوضه في حاجة صابَرَه حتى يكون هو المنصرف عنه، ومن سأله حاجةً لم يردّه إلا بها أو بميسور من القول، قد وسع الناسَ بِشْرُه وخُلقه، فصار لهم أباً، وصاروا عنده في الحق سواء.

مجلسُه مجلسُ علمٍ وحلمٍ وحياءٍ وأمانةٍ وصبر، لا تُرفع فيه الأصوات، ولا تؤبَن ـ تُهْتَك ـ فيه الحُرَم، ولا تُذْكر فيه فلتات الناس، كانوا عنده متعادلين، وكانوا يتفاضلون في مجلسه بالتقوى متواضعين. يوقّرون فيه الكبير، ويرحمون فيه الصغير، ويؤثرون ذا الحاجة على أنفسهم، ويحفظون حق الغريب.

وكان ﷺ أجودَ الناس صدراً، وأصدقَ الناس لهجة، وألينَهم عريكة، وأكرمَهم عِشرة، من رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه، وكان لا يتكلم إلا فيما رجا ثوابَه، وإذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير، فإذا سكت تكلموا، لا يتنازعون عنده

الحديث، من تكلم عنده أنصتوا له حتى يفرُغ، حديثُهم عنده حديثُ أوّلهم.

وكان لا يقطع على أحد حديثَه حتى يجورَ ـ يجاوز الحق ـ فيقطعَهُ بنهي أو قيام، يضحك ﷺ مما يضحكون منه، ويتعجبُ مما يتعجبون منه، ويصبر للغريب على الجفوة في منطقه ومسألته، ويقول لأصحابه: (إذا رأيتم طالب حاجة يطلبها فأرْفِدوه) ـ أي: أعينوه ـ.

قال أنس ﷺ: حجَّ رسول الله ﷺ على رحلٍ رثٍّ ـ بالٍ ـ وقطيفةٍ كنا نرى ثمنها أربعة دراهم، فلما استوت به راحلتُه، قال: **(اللّهُمَّ لبيك بحجّة لا سُمعة فيها ولا رياء)**.

وقال زيد بن ثابت ﷺ: كنا إذا ذكرْنا الدنيا ذكرها معنا، وإذا ذكرْنا الآخرة ذكرها معنا، وكان ﷺ لا يواجه أحداً بما يكره، ولا يجزي السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح.

وقالت عائشة رضي الله عنها: **(ما ضرب رسول الله ﷺ بيده شيئاً قط، ولا ضرب خادماً، ولا امرأة، وما رأيتُه منتصراً من مظلمة ظُلِمَها قط، مالم يُنْتَهك من محارم الله شيء، فإذا انْتُهِك**

من محارم الله شيء كان أشدَّهم غضباً وما خُيّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما مالم يكن مأثماً) أي: مفضياً إلى إثم.

قالت أميمة بنت رُقَيْقة الأنصارية رضي الله عنها: أتيتُ النبي ﷺ في نسوة من الأنصار نُبَايعه، فقلنا: يا رسول الله: هلم ـ أقبل ـ نبايعك ـ وكانت المبايعة لا تُعْقَد إلا باليد من كل فرد ـ فقال رسول الله ﷺ: **(إني لا أصافح النساء، إنما قولي لمائة امرأة كقَوْلي لامرأة واحدة، قد بايَعْتُكُنَّ كلاماً)**.

قالت عائشة رضي الله عنها:" والله ما مسَّت يدُ رسول الله ﷺ يدَ امرأة قط، كان يُـبَايعهن بالكلام".

قال معاوية بن الحكم السُّلمي رضي الله عنه: بينا أنا أصلّي مع رسول الله ﷺ، إذ عطس رجلٌ من القوم، فقلتُ له: يرحمك الله، فرماني القوم بأبصارهم ـ نظروا إليّ مستنكرين ـ فقلتُ: واثُكْلَ أماه، ما شأنُكُم تنظرون إليّ.؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم ! فلما رأيتهم يصمّتونني سَكَتّ.

فلما صلى رسول الله ﷺ دعاني، فبأبي هو وأمي، ما رأيت معلّماً قبله ولا بعده أحسنَ تعليماً منه، فوالله ما نهرني ولا ضربني

ولا شتمني، لكن قال: **(إنّ هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيحُ والتكبيرُ وقراءةُ القرآن)** (١).

١٧) لزوم الأدب معه ﷺ:

عرفتَ مما حدّثناك به عن شمائله ﷺ، ما كان عليه من كريم السجايا، وجميل الخلال التي جمعها الله فيه، وازدانت بالانتساب إليه، فعنه تؤخذ المكارم، وإليه تُردّ الفضائل كلها.

كما عرفتَ طرفاً من سيرة الصحابة الكرام معه، ولُمْعةً من أدبهم في حضرته ﷺ، وأنهم كانوا في مجلسه الشريف، كأنما على رؤوسهم الطير، تعظيماً له وتكريماً.

ونزيدك هنا حديثاً عن أدبهم فنقول: كانوا ﷺ في المقام الأسنى من توقيره وتعظيم أمره ونهيه، والمبادرة إلى ما يَندُبهم إليه، وكانوا يخفِضون أصواتهم عنده، ولا ينادونه كما ينادي بعضُهم بعضاً، وكان كلام أحدهم معه كأخي السِّرار ـ أي كالمتحدث بِسِرّ ـ وكانوا لا ينصرفون من مجلسه إلا بإذنه، ولا يسبقونه في قول، ولا يتقدّمونه في عمل، ولا يعملون إلا بأمره وهدْيه.

---

(١) ـ رواه مسلم.

وقد دعاهم الله إلى الأخذ بهذا الأدب الرفيع، فقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُقَدِّمُواْ (١) بَيْنَ يَدَيِ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيم ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَرْفَعُواْ أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيّ، وَلاَ تَجْهَرُواْ لَهُ بِالقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُم لاَ تَشْعُرُون} [الحجرات: ١ و ٢].

وقال تعالى مرشداً لهم إلى رعاية الحرمة معه في النداء: {لاَ تَجْعَلُواْ دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً} [النور: ٦٣].

وأثنى عليهم بقوله: {إِنّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى، لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ} [الحجرات: ٣].

وعلّمهم أدب الاستئذان بقوله: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُواْ حَتَّى يَسْتَأْذِنُوه} [النور: ٦٢].

ولما أوفدَتْ قريشٌ عروة بن مسعود الثقفي يوم الحديبية ـ قبل أن يسلم ـ إلى رسول الله ﷺ، ورأى من تعظيم أصحابه له ما رأى، وأنه لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه، ولا تسقط منه شعرة إلا

---

(١) ـ أي لا تتقدموا.

استبقوا إليها، وإذا أمرهم بأمرٍ ابتدروا أمرَه، وإذا تكلّم خفضوا أصواتهم عنده، ولا يُحِدّون إليه النظر، رجع إلى قريش فقال لهم:

(يا معشر قريش ! إني جئت كسرى في عظمته، وقيصر في سلطانه، والنجاشي في مُلكه، وإني والله ما رأيتُ ملِكاً في قومٍ قطّ مثلَ محمد في أصحابه).

وإذا أردْتَ أن تقف على نموذج من الأدب أسمى من هذا وأرفع، فاستمع إلى العباس عمّ رسول الله ﷺ، وقد سأله الرسول ﷺ: **(أنا أكبرُ أو أنت).**؟ قال: أنت أكبرُ وأكرم، وأنا أسنُّ منك [1].

ولقد تكرر صدور هذا من أصحابه ﷺ، مما دلّ على يقظة تامة، وتأدب شامل، لا تُدركهم فيه الغفلة، ولا ينالُهُم فيه السهو.

روى الحافظ ابن حجر [2] عن سعيد بن يربوع المخزومي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال له: **(أيُّنا أكبرُ، أنا أو أنت.؟)** قال: أنت أكبر وأخْيَرُ مني، وأنا أقدمُ منك سنّاً.

وإنك لتعجبُ إذا حدّثناك أن إجلالَهم للنبي ﷺ كان حاضراً معهم وسجيّةً من سجاياهم، لم تفارقهم أبداً حضروا مع

---

(١) - رواه السيوطي في كتابه (تاريخ الخلفاء) [ص٢١].
(٢) - في كتابه (الإصابة في تمييز الصحابة) [٥١/٢].

النبي ﷺ، أو غابوا، قربوا منه أو بعدوا ؛ فهذا عثمان ابن عفان ﷺ يسأل قُباثَ بن أَشْيَـم الكناني ﷺ: أنت أكبرُ أم رسولُ الله ﷺ؟. فقال قُباث ﷺ: رسول الله ﷺ أكبر، وأنا أقدَمُ منه في الميلاد [١].

وهذا هو الأدب الحق الذي ينبغي للمسلم أن يتحلى به، ويعرفَه لرسوله ﷺ حيّاً وميتاً، وهو إلى جانب هذا خُلقٌ ينادي بإيمان صاحبه، ويُعـبِّرُ عن مبلغ حرمة النبي ﷺ في قلبه، ويُعْرِبُ عن علوّ منزلته الشريفة عنده، ولقد كان سلفنا الصالح رضوان الله عليهم في هذا الأدب مضرب الأمثال، ومَدعى الدهشة والإعجاب، وهانحن أولاء نسوقُ لك لُمَعاً من أخبارهم الخالدة في تعظيمه ﷺ وإجلاله.

١٨) تعظيمه ﷺ:

روى العلماء في تراجم الصحابة والتابعين وسِيَرِهم مآثر باهرة في تعظيمهم للنبي ﷺ وتوقيره. فمن ذلك ما نقله القاضي عياض [٢] أن رجلاً جاء إلى سعيد بن المسيّب فسأله عن حديثٍ

---

(١) - رواه الترمذي في سننه [١٣/١٠٥].
(٢) - في كتابه (الشفاء) [٢/٣٤ - ٣٨].

وهو مضطجع، فجلس وحدّثه، فقال له الرجل: ودِدتُ أنك لم تتعنَّ ـ لم تترك راحتك ـ فقال: إني كرهتُ أن أحدّثك عن رسول الله ﷺ وأنا مضطجع.

قال القاضي: وكان الإمام مالك بن أنس لا يحدّث بحديث رسول الله ﷺ إلا وهو على وضوء إجلالاً له. ولما ناظره أبو جعفر المنصور أميرُ المؤمنين في مسجد رسول الله ﷺ ورفعَ صوتَه في المناظرة، قال له: يا أميرَ المؤمنين ! لا ترفعْ صوتَك في هذا المسجد، فإن الله أدّب قوماً فقال: {**لاَ تَرْفَعُواْ أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيّ**}، ومدحَ قوماً فقال: {**إِنّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى، لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيم**}، وذمّ قوماً فقال: {**إِنّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُون**} (١) وإن حرمته ﷺ ميتاً كحرمته حياً، فاستكان ـ أي: خضع ـ لها أبو جعفر.

ومن أبرز مظاهر تعظيمه ﷺ: الصلاة عليه كلّما ذُكر، وقد أخبرنا الله تعالى أنه يصلي عليه وملائكته، وأمرنا بذلك أيضاً،

(١) - [الحجرات ٤].

فقال: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيماً} [الأحزاب: ٥٦].

وصلاة الله تعالى وصلاة ملائكته على رسوله ﷺ معناها ثناؤه سبحانه، وثناء ملائكته عليه، وتمجيدُه ﷺ، والعناية به، وإظهار شرفه، والإشادة بذكره وفضله، والإعلاء من حرمته وشأنه ؛ وليس بعد هذا تعظيمٌ أو ثناء.

وإنه ليتجلى لك هذا واضحاً مُشْرِقاً إذا لاحظْتَ أن الله تعالى نادى أنبياءَه عليهم الصلاة والسلام بأسمائهم فقال: {... يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْك...} [هود: ٤٨].

{.. يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي المُحْسِنِين} [الصافات: ١٠٥].

{.. يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي..} [الأعراف: ١٤٤].

{.. يَا عِيسَى بنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِك..} [المائدة: ١١٠].

ولم ينادِ نبينا محمداً ﷺ في مخاطباته كلها باسمه، ولو مرة واحدة، وإنما ناداه بلقب النبوة أو الرسالة، فقال جلَّ شأنه:

{يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً...} [الأحزاب: ٤٥].

{يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ...} [المائدة: ٤١].

وفي هذا أبلغُ تعظيم وأبهاه، وأشملُه وأكملُه وأزكاه.

وفي صلاة الله تعالى وملائكتِه عليه، وتكريمِه إياه في خطابه، ما يدعونا إلى المبادرة بالثناء عليه ﷺ كلما ذُكِر، اقتداءً بالله تبارك وتعالى، وموافقةً لملائكته الكرام ؛ بل إن ثناءَنا عليه ﷺ حقٌّ ثابتٌ علينا قبل أن يرِد فيه أمرٌ من الله تعالى صريح، فكيف وقد أمرنا الله سُبحانه بذلك أمراً خاصّاً، فقال: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيماً} [الأحزاب: ٥٦].

فنحن إذن أولَى وأحقّ بتعظيمه والثناء عليه، لِما نالنا من بركته ﷺ ويُمْنِ سِفارته، وهو الذي أنقذنا الله به من الضلال إلى الهدى، وأخرجَنا به من الظلمات إلى النور، وامتنّ به علينا في قوله: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيم} [التوبة: ١٢٨].

وقد أرشدنا ﷺ إلى كيفية الثناء عليه فيما رواه كعب بن عُجرة أن الصحابة ﷺ قالوا: يا رسول الله: قد عرَفنا كيف السلام عليك، فكيف الصلاة؟

فقال: **(قولوا: اللّٰهُمَّ صلّ على محمد وعلى آل محمد، كما صليتَ على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، في العالمين إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركتَ على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، في العالمين إنك حميد مجيد)** (١).

ولعلّك تلاحظ معنا في جوابه ﷺ إيماءً إلى أننا قاصرون عن توفية حقّه من الثناء عليه، فنحن إذْ نقول: **(اللّٰهُمَّ صلّ على محمّد)** لم نُصلّ، ولكن سألنا الله تعالى أن يصلي عليه، لأنه سبحانه أعلم بقدْر نبيّه ومصطفاه.

وإذا أردنا أن نجتلي وجهَ البلاغة في قوله تعالى: {**صَلُّواْ عَلَيْه**} ـ مع أنه لم تكن منا صلاةٌ كمَا عَلِمْتَ ـ لاحَ لنا أن ثناءنا عليه ﷺ يعدُّ في شرع الله تعالى عبادةً من أفضل عباداتنا، التي أمرنا الله بها وشرعها لنا ديناً وقُربى ـ وهي الصلاة ـ وذلك واضح من قوله تعالى: {**صَلُّواْ عَلَيْه**} فقد سمى ثناءنا صلاة. وتبين

---

(١) ـ رواه البخاري [١٢٦/١٩] ومسلم [١٢٦/٤] وغيرهما.

لنا أيضاً أن في ثنائنا عليه ﷺ مثوبة وأجراً، كما أن في الصلاة التي تعَـبَّدنا الله تعالى بها، أجزل الأجر وأفضل الثواب.

وقد نَدَبـَنا ﷺ إلى الصلاة عليه، مُخْبِراً عما فيها من عظيم الأجر، وكريم النوال، فيما رواه أبو هريرة وعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: **(من صلى عليّ صلاةً واحدةً صلى الله عليه بها عشراً)** أي أثنى الله عليه، وثناؤه تعالى رحمةٌ وأيُّ رحمة (١).

ولهذا عدّ ﷺ إغفالَ تعظيمه بُخلاً، وسمّى المُفرِّط في ذلك بخيلاً ؛ فقال: **(البخيل من ذُكِرْتُ عِنْده فلم يُصَلِّ عَلَيّ)** (٢) وذلك لأنه بَخِل بالثناء على من أُرْسِل إليه رحمة، وأسدى إليه بإرشاده أجلّ نعمة، وبَخِل على نفسه حين حرمَهَا صـلاةَ الله عليه عشراً، تلقاءَ صلاةٍ منه واحدة.

إذا عرفتَ هذا علمتَ مبلغَ تقصير أولئك الذين يُردّدون ذكره ﷺ في المجالس والمحافل الخاصة أو العامة، باسمه المجرَّد غيرَ مقرون بكلمة تعظيم أو سيادة، أو غيرَ متبوعٍ بالصلاة عليه، ناسين مبالغتَهم فيمن سواه من الناس، ومَنْحَهم الألقاب

---

(١) ـ رواه الإمام مسلم ١٢٨/٤ وأبو داود ١٤٤/١ وغيرهما.
(٢) ـ رواه الترمذي [١٦٢/١٣] والحاكم [٥٤٩/١] وغيرهما عن علي رضي الله عنه.

الفخمة والأوصاف العريضة للكبير والصغير بحقٍّ وبغير حقّ ؛ والرسول ﷺ أحقّ بالإجلال والثناء من كل عظيم، ولا ينبغي أن يكون في قلب المؤمن أجلُّ ولا أعظمُ ـ بعد الله تعالى ـ منه ﷺ، وإنه لمن الوفاء بحقه ﷺ، والعرفان لجميله وحسن صنيعه، أن نُسَوّده ـ نَـقْرُن اسمه بلفظة: **سيّدِنا** (١) ـ ونصلّي عليه كلما ذُكِر.

وفي تجديد ذكره ﷺ وترداد اسمه مقروناً بالثناء والتعظيم، دلالةٌ ناطقةٌ على أن القلب مُترَعٌ بالإيمان به، فـيَّاض بحبّه وإكباره، مُتَغَلْغِلٌ فيه تقديسُ شريعته، واتّباع أحكامه.

وإذا لهِجَ الإنسان بذكره وتعظيمه ﷺ رسخت في قلبه جذورُ الإيمان، ولمعَت على ظواهره آثاره، وانبعثت همّته إلى تطبيق شريعته الغراء، وإحياء سنّته الزهراء.

١٩) كيف نحيي ذكراه ﷺ:

---

(١) ـ يشكل بعض الناس في هذا الوصف للنبيّ ﷺ، ولا أدري وجه الإشكال في ذلك بعدما وصف الله تعالى نبيّه يحيى بقوله سبحانه: {وسَيّداً وحَصُوراً، ونبيّاً مِنَ الصالحينَ} [آل عمران ٣٩]، وبعدما تحدّث النبيّ ﷺ بنعمة الله تعالى عليه يوم القيامة فقال في حديث الشفاعة المشهور: (أنا سيّدُ ولدِ آدمَ ولا فخرَ..) الحديث، وانظر تعليق الشيخ عبد الفتاح أبو غدّة في رسالته:" من أدب الإسلام" ص/٩/ فما بعد، وما نقله عن بعض العلماء المحقّقين من جواز ذلك بل استحبابه. عبد المجيد.

لم ينسَ العالَمُ فضلَ هذا الرسول الكريم ﷺ، ففي كل شهر ربيعٍ الأول من كل عام هجري، تُقام معالِمُ الزينة في أنحاء العالم الإسلامي، وتمتلئ الصحف بأحسن القول، وتنطلق الألسنة بأطيب الثناء، وتفيض القلوب بالمسرّة والابتهاج، وهذا بعض ما يجب لهذا الرسول الأكرم ﷺ من إجلالٍ وإعظام.

لكن ينبغي أن لا يقتصر إحياء هذه الذكرى على أنوارٍ تشعّ، ومآذن توقَد، وحفَلاتٍ تقام، وأبحاثٍ تُكتب، وأقوالٍ تُخطَب، لا، كل هذا وما إليه مظاهر لا تفي بالتعظيم، ولا تحقق معنى التكريم.

إنما التكريم الحق، والإجلال الصادق، أن نُحْيي هذه الذكرى في نفوسنا بغرس العقيدة السليمة، والأخلاق القويمة، والرجولة الكاملة، والعلم الصحيح، وأن نكوّن من أنفسنا أمة ترقى إلى معارج الحضارة الحقة، والمدنية الرشيدة، معتمدةً على هدْي الإسلام ونهجِه القويم، وتُراثِه العلمي الذي خضعت له أممُ الغرب، وأذعنت لسلطانه جبابرة العلم والمدنية الحديثة.

التكريم الصادق أن نستمسك بقرآننا الكريم، ونستلهمه الخير والحكمة، ونستنطقَه الحُجة والبيان، ونستنيرَ بهدْيه

وإرشاده، ونُذْعن إليه قاضياً ومعلماً ؛ وأن نُحكّمه في أنفسنا وأسرتنا ومُقوّماتنا الخاصة والعامة، نأتمر بأمره، وننتهي بنهيه، لا نقصّرُ عنه ولا نجاوزه، نتدارسُه صباحَ مساء، ونستكشفُ منه ما أُودِعَ من حُكْمٍ وعِلم، وما حواه من عِظةٍ وعِبرة.

التكريم الحق أن نتَّبِع سُنّة هذا الرسول الكريم ﷺ، ونَدْرُسَ سيرتَه دراسةَ وعْيٍ وفهم، فنستلهم منها الهدى والرشاد، والعلم والعمل، والتضحية والثبات ؛ ونُطالعَ سيرةَ أصحابه الغرّ الميامين، وأخبارهم الممتعة، فنتعلم كيف يكون الانقياد والاتّباع، وكيف يُتَحمّل الأذى ويُستعذب العذاب، في تأييد الشرع الحكيم، والمبدأ الحق ؛ وكيف تُبْذَل الأموال والأرواح في سبيل الله، وإعلاء دينه، ونُصْرَة رسوله. وفي سنّته ﷺ وسيرة أصحابه بيان ما نحتاج إليه في عباداتنا ومعاملاتنا وحياتنا الخُلُقية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية الحقة، وفيها بيان ما ينبغي أن يُربَّى عليه الفرد والأسرة، وما ينبغي أن تكون عليه الأمة حكومةً وشعباً، وفيها ما يبدّد كل غموضٍ يعترضنا في هذه الحياة، وما يُنِيرُ لنا الحق ويهدي السبيل.

التكريم الحق أن نتمسك بمبادئ الإسلام المشرقة، وأنظمتِه الخالدة التي تنشئ الفرد قوياً متميزاً بالخُلُق السامي، والعقل

الراجح، والجهاد الدائم، والعقيدة الراسخة، لا يذوب في غيره، ولا تلوي به عواصف الأهواء والـمُغريات، ولا يتلوّن متأثراً بالمطامع والحزبيات، لا تغريه قومية ولا جنسية، ولا تزحزحه عن إسلامه نُعرة ولا عصبية، ينصر الحق، لا تأخذه فيه لومةُ لائم، ويتفانى في تأييده ونُصرته، ويموت في إحيائه وإعزازه.

التكريم الحق أن يفخر الفتى المسلم بتاريخه المجيد، وسلفه الصالح، ويتأسى برجاله وأبطاله، ويعمل على إعلاء شأنِ الأمة والنهوض بها، ويكتب لنفسه في تاريخ الكون سطوراً من الفخر والعزة والكرامة ؛ ويرفعَ رأسه معتزاً بدين رفع الإنسانية من حضيض الجهل إلى أوج العلم، وهداها سُبل السعادة الباقية، والمدنية المهذبة: {**وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ، وَعَمِلَ صَالِحاً،وَقَالَ: إِنَّنِي مِنَ الـمُسْلِمِين (٣٣)**} [فصلت].

ونحن إذ نهيب بالأمة أن تعمل بإسلامها، وتقتدي بنبيّها ﷺ، نبسط يد الضراعة إلى الله تعالى: نسأله أن يمنحها التوفيق والإنابة إليه، ويُلهمها العمل بما يحقق لها السيادة والبقاء، وتنال به رضى الله تعالى وعونَه، إنه أكرم مسؤول، وأسرعُ مجيب. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

ومضات

من هدي النبيّ الخاتم ﷺ

إعداد

الدكتور عبد المجيد البيانوني

كل الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ

الطبعة الثانية ١٤٢٠ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحمد لله حقّ حمده، والصلاة والسلام على سيدنا محمّد خيرة خلقه وسيّد جنده، ورضي الله عن أصحابه وأتباعه وأهل ودّه، وبعد ؛ فإن من أصول عقيدة المسلم أن يعرف نبيّه ﷺ معرفة تورث محبّته، وتثمر اتّباعه وطاعته، وتحصّن دينه وأخلاقه عن أن يكون إمّعة تابعا لكلّ ناعق، أو تائهاً وراء كلّ منافق.

وإن من أخطر ما ابتليت به الأمّة في شبابها وفتياتها جهلهم بسيرة نبيّهم وشمائله الزكيّة العطرة، حتى لو قلت لأحدهم اكتب ما تعرفه عن نبيّك ﷺ لما تجاوز علمه ملء صفحة من الورق، وربما كان خطأها أكثر من صوابها، وربما جاء بالمضحكات المبكيات من المعلومات المشوّهة، ثمّ لم يكن مبلغه من العلم سوى أسطر قليلة يعرف أضعاف

أضعافها عن بعض النكرات من فسّاق عصره، أو الكفرة التائهين في أطراف الأرض البعيدة.

فرأيت أن أجمع نبذة موجزة من السيرة العطرة تعرّف شبابنا وفتياتنا بأعظم منّة أسدتها يد العناية الإلهيّة إليهم: {لقد منّ الله على المؤمنينَ إذ بعثَ فيهم رسولاً مِن أَنفُسِهم، يتلُو عليهم آياتِه ويُزكّيهم، ويُعلّمُهُمُ الكتابَ والحكمةَ، وإن كانُوا مِن قبلُ لَفِي ضَلالٍ مُبينٍ} [آل عمران: ١٦٤].

ولعلّ في هذه الومضات ما يدعو أبناءنا وبناتنا إلى دراسة سيرة المصطفى ﷺ دراسة مؤمن محبّ، حريص على التأسّي والاتّباع.

والله تعالى أسأل أن يجنّبني الزلل، ويرزقني الإخلاص في القول والعمل، وأن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به عباده، ويكتب لي أجره، ويعظم عنده ذخره، إنه أكرم مسئول، وهو حسبي ونعم الوكيل.

واعلم أخي المؤمن وفّقنا الله وإيّاك: أنّه مهما تعدّدت جوانب العظمة في حياة الرسول ﷺ وتحدّث الناس عنها، وأفردوها بالبحث والعناية فإن مردّها جميعاً إلى العظمة النفسيّة

التي جبله الله عليها، وأودعها في فطرته، وجعله سيّد ولد آدم بما خصّه من خصائص، وما حباه من مكرمات، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى ذلك في قوله سبحانه: {**وإذا جاءتهُم آيةٌ قالوا: لن نّؤمنَ حتّى نُؤتَى مثلَ ما أُوتيَ رُسُلُ الله، الله أعلمُ حيثُ يجعلُ رسالتَه، سيُصِيبُ الذين أَجرمُوا صَغارٌ عند الله، وعذابٌ شديدٌ بما كانُوا يمكُرُونَ (١٢٤)**} [الأنعام].

ومما يجلّي المعنى المراد في هذه الآية، ما جاء في الحديث الشريف عَنِ الْمُطَّلِبِ بْنِ أَبِي وَدَاعَةَ قَالَ: قَالَ الْعَبَّاسُ: بَلَغَهُ ﷺ بَعْضُ مَا يَقُولُ النَّاسُ قَالَ: فَصَعِدَ الْمِنْبَرَ، فَقَالَ:

(أيُّها النَّاسُ مَنْ أَنَا؟ قَالُوا: أَنْتَ رَسُولُ الله، فَقَالَ: أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الله بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، إِنَّ الله خَلَقَ الْخَلْقَ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ خَلْقِهِ، وَجَعَلَهُمْ فِرْقَتَيْنِ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ فِرْقَةٍ، وَخَلَقَ الْقَبَائِلَ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ قَبِيلَةٍ، وَجَعَلَهُمْ بُيُوتاً، فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهِمْ بَيْتاً، فَأَنَا خَيْرُكُمْ بَيْتاً، وَخَيْرُكُمْ نَفْساً) (١).

فعظمة محمّد ﷺ تتجلّى في أخلاقه الشريفة ﷺ وشمائله، التي انبثق عنها كلّ ما اتّصل بشخصيّته من فضائل ومكارم، وقد

---

(١) - رواه الترمذي في الدعوات /٣٤٥٥/ وفي المناقب /٣٥٤١/ وقال: هذا حديث حسن، ورواه أحمد في المسند /٢٤١٣٩/ واللفظ له.

دلّ عليها ما جاء به من مبادئ سامية، وقيم رفيعة، وما قام به من أعمال جليلة، وتغيير عظيم في حياة الأمّة التي بعث فيها، حتى تحقّق فيه بصدق أنه أخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربّهم، كما أخرج للناس جيلاً قياديّاً صالحاً، قاد البشريّة بشريعة الله، وأقام فيهم موازين الحقّ والعدل، وأنشأ حضارة إنسانيّة فاضلة سعدت بها البشريّة قروناً

وينبغي أن يعلم أن خصال الكمال والجمال في البشر نوعان:

ـ **النوع الأول**: ضروريّ دنيويّ اقتضته الجِبِلّة وضرورة الحياة الدنيا، وليس للمرء فيه اختيار ولا اكتساب، ككمال الخلقة، وجمال الصورة، وقوّة العقل، وصحّة الفهم، وفصاحة اللسان، وقوّة الحواسّ وسلامة الأعضاء، وشرف النسب وعزّة القوم..

ويلحق بهذا النوع ما تدعو ضرورة الحياة إليه، من المأكل والمشرب، والملبس والمسكن، والنوم والمنكح، والمال والجاه.

وقد تلحق هذه الخصال الأخيرة بالنوع الثاني إذا قصد بها التقوى، ومعونة البدن على سلوك طريق الآخرة، وكانت بحدود الحاجة ووفق الشريعة.

ـ **والنوع الثاني**: مكتسب دينيّ، وهو ما يحمد فاعله، ويقرّب إلى الله زلفى، كالأخلاق العليّة والآداب الشرعيّة: من الدين والعلم، والحلم والصبر، والشكر والعدل، والعفّة والجود، والعفو والشجاعة، والحياء والمروءة، والرفق والرحمة، وحسن الخلق والمعاشرة.

وقد يكون لبعض الناس من هذه الأخلاق ما هو في الغريزة وأصل الجبلّة، وبعضهم لا تكون فيه فيكتسبها.

فإذا كانت خصال الكمال والجمال ما ذكرنا، ووجدنا الواحد من الناس يشرف بواحدة منها أو اثنتين، حتى يعظم بين الناس قدره، ويضرب باسمه المثل، فما ظنّك بعظيم قدر من اجتمعت فيه كلّ هذه الخصال، إلى ما لا يأخذه عدّ، ولا يعبّر عنه مقال، ولا ينال بكسب ولا حيلة إلا بتخصيص الكبير المتعال ؛ مما خصّ الله به نبيّنا ﷺ، من فضيلة النبوّة والرسالة، والخلّة والمحبّة، وختم النبوّة به وعموم دعوته، وإعطائه الشفاعة والوسيلة، وشرح الصدر، ووضع الوزر، ورفع الذكر، وعزّة النصر، وإجابة الدعاء، وإعطاء السؤل وتمام الفضل، ونزول السكينة، والتأييد بالملائكة، وإيتاء الكتاب والحكمة، والسبع المثاني والقرآن العظيم، والتأييد بالمعجزات، ونبع الماء من بين أصابعه،

وتكثير الطعام القليل ببركته، وانشقاق القمر، والإسراء والمعراج، والعصمة من الناس [1].

وبالجملة فإنه ﷺ أعلى الناس قدراً، وأرفعهم ذكراً، وأكملهم محاسن وفضلاً.

ـ **وصفه الخِلقيّ: وأما صفته الخِلقيّة** فقد جاء في ذلك ما رواه إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدٍ مِنْ وَلَدِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ قَالَ كَانَ عَلِيٌّ ﷺ إِذَا وَصَفَ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ:

(لَمْ يَكُنْ بِالطَّوِيلِ الْمُمَّغِطِ، وَلا بِالْقَصِيرِ الْمُتَرَدِّدِ، وَكَانَ رَبْعَةً مِنَ الْقَوْمِ، وَلَمْ يَكُنْ بِالْجَعْدِ الْقَطَطِ، وَلا بِالسَّبِطِ، كَانَ جَعْداً رَجِلا، وَلَمْ يَكُنْ بِالْمُطَهَّمِ، وَلا بِالْمُكَلْثَمِ، وَكَانَ فِي الْوَجْهِ تَدْوِيرٌ، أَبْيَضُ مُشْرَبٌ، أَدْعَجُ الْعَيْنَيْنِ، أَهْدَبُ الأَشْفَارِ، جَلِيلُ الْمُشَاشِ وَالْكَتَدِ، أَجْرَدُ ذُو مَسْرُبَةٍ، شَثْنُ الْكَفَّيْنِ وَالْقَدَمَيْنِ، إِذَا مَشَى تَقَلَّعَ كَأَنَّمَا يَمْشِي فِي صَبَبٍ، وَإِذَا الْتَفَتَ الْتَفَتَ مَعاً، بَيْنَ كَتِفَيْهِ خَاتَمُ النُّبُوَّةِ، وَهُوَ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، أَجْوَدُ النَّاسِ كَفًّا، وَأَشْرَحُهُمْ صَدْراً، وَأَصْدَقُ النَّاسِ لَهْجَةً، وَأَلْيَنُهُمْ عَرِيكَةً،

---

(1) ـ ينظر الشفا للقاضي عياض ٧٧/١ وما بعد، بتصرّف واختصار.

وَأَكْرَمُهُمْ عِشْرَةً، مَنْ رَآهُ بَدِيهَةً هَابَهُ، وَمَنْ خَالَطَهُ مَعْرِفَةً أَحَبَّهُ، يَقُولُ نَاعِتُهُ: لَمْ أَرَ قَبْلَهُ وَلا بَعْدَهُ مِثْلَهُ)[1].

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ: سَمِعْتُ الأَصْمَعِيَّ يَقُولُ فِي تَفْسِيرِهِ صِفَةَ النَّبِيِّ ﷺ:

ـ الْمُمَّغِطُ: الذَّاهِبُ طُولاً، وَسَمِعْتُ أَعْرَابِيّاً يَقُولُ: تَمَغَّطَ فِي نُشَّابَةٍ أَيْ مَدَّهَا مَدّاً شَدِيداً.

ـ وَأَمَّا الْمُتَرَدِّدُ: فَالدَّاخِلُ بَعْضُهُ فِي بَعْضٍ قِصَراً.

ـ وَأَمَّا الْقَطَطُ: فَالشَّدِيدُ الْجُعُودَةِ، وَالرَّجِلُ الَّذِي فِي شَعْرِهِ حُجُونَةٌ، أَيْ يَنْحَنِي قَلِيلاً.

ـ وَأَمَّا الْمُطَهَّمُ: فَالْبَادِنُ الْكَثِيرُ اللَّحْمِ.

ـ وَأَمَّا الْمُكَلْثَمُ: فَالْمُدَوَّرُ الْوَجْهِ.

ـ وَأَمَّا الْمُشْرَبُ: فَهُوَ الَّذِي فِي نَاصِيَتِهِ حُمْرَةٌ.

ـ وَالأَدْعَجُ: الشَّدِيدُ سَوَادِ الْعَيْنِ.

ـ وَالأَهْدَبُ الطَّوِيلُ الأَشْفَارِ.

ـ وَالْكَتَدُ: مُجْتَمَعُ الْكَتِفَيْنِ وَهُوَ الْكَاهِلُ.

---

(1) ـ رواه الترمذي في سننه /٣٥٧١/ وقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ لَيْسَ إِسْنَادُهُ بِمُتَّصِلٍ.

ـ وَالْمَسْرُبَةُ: هُوَ الشَّعْرُ الدَّقِيقُ الَّذِي هُوَ كَأَنَّهُ قَضِيبٌ مِنَ الصَّدْرِ إِلَى السُّرَّةِ.

ـ وَالشَّثْنُ: الْغَلِيظُ الأَصَابِعِ مِنَ الْكَفَّيْنِ وَالْقَدَمَيْنِ.

ـ وَالتَّقَلُّعُ: أَنْ يَمْشِيَ بِقُوَّةٍ.

ـ وَالصَّبَبُ: الْحُدُورُ، يَقُولُ: انْحَدَرْنَا فِي صَبُوبٍ وَصَبَبٍ.

ـ وَقَوْلُهُ: جَلِيلُ الْمُشَاشِ يُرِيدُ رُءُوسَ الْمَنَاكِبِ.

ـ وَالْعِشْرَةُ: الصُّحْبَةُ، وَالْعَشِيرُ الصَّاحِبُ.

ـ وَالْبَدِيهَةُ: الْمُفَاجَأَةُ، يُقَالُ: بَدَهْتُهُ بِأَمْرٍ أَيْ فَجَأْتُهُ.

وعَنْ نَافِعِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ عَنْ عَلِيٍّ ﷺ قَالَ:" لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالطَّوِيلِ وَلا بِالْقَصِيرِ، شَثْنَ الْكَفَّيْنِ وَالْقَدَمَيْنِ، ضَخْمَ الرَّأْسِ، ضَخْمَ الْكَرَادِيسِ، طَوِيلَ الْمَسْرُبَةِ، إِذَا مَشَى تَكَفَّأَ تَكَفُّؤاً كَأَنَّمَا انْحَطَّ مِنْ صَبَبٍ، لَمْ أَرَ قَبْلَهُ وَلا بَعْدَهُ مِثْلَهُ" (١).

وعَنْ رَبِيعَةَ بْنِ أَبِي عَبْدِالرَّحْمَنِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ أَنَّهُ سَمِعَهُ يَقُولُ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَيْسَ بِالطَّوِيلِ الْبَائِنِ، وَلا بِالْقَصِيرِ، وَلَيْسَ بِالأَبْيَضِ الأَمْهَقِ، وَلَيْسَ بِالآدَمِ، وَلَيْسَ بِالْجَعْدِ الْقَطَطِ، وَلا بِالسَّبْطِ، بَعَثَهُ اللهُ عَلَى رَأْسِ أَرْبَعِينَ سَنَةً فَأَقَامَ بِمَكَّةَ

(١) ـ رواه الترمذي في المناقب /٣٥٧٠/ وقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ ورواه أحمد في المسند.

عَشْرَ سِنِينَ وَبِالْمَدِينَةِ عَشْرَ سِنِينَ وَتَوَفَّاهُ الله عَلَى رَأْسِ سِتِّينَ سَنَةً، وَلَيْسَ فِي رَأْسِهِ وَلِحْيَتِهِ عِشْرُونَ شَعَرَةً بَيْضَاءَ (١).

إن الأمانة هي ملتقى الفضائل النفسيّة كلها، وقوامها: اعتدال الفطرة، وسموّ الهمّة، واتّزان الشخصيّة، وعفّة النفس وتجرّدها عن سفساف الأمور والاهتمامات الدنيا.

لقد شهدت قريش بإجماع رجالها وعقلائها لرسول الله ﷺ بالأمانة قبل نبوّته وشهد له القرآن الكريم بالخلق العظيم بعد رسالته، ولا بدّ من نظرة إلى شهادة قريش من زاويتين:

ـ **الزاوية الأولى**: من زاوية الدافع إلى هذه الشهادة وقيمتها ؛ فلابدّ أن الأمانة التي تحلّى بها النبيّ ﷺ كانت ظاهرة محلّ بروز وتألّق وتميّز، في شخصيّته وسلوكه، بصورة جذبت أنظار المراقبين، ولفتت انتباه المجتمع من حوله ﷺ، وانتزعت منهم شدّة إعجابهم، كما كانت تعبيراً عن اجتماع حقائقها، وتآلف معانيها، لتكون حقيقة كبرى، تنتظم من خلالها شخصيّة المصطفى ﷺ بصورة معجزة إنسانيّة لم يسبق لها مثيل،

---

(١) ـ رواه البخاري في اللباس /٥٤٤٩/ ، وفي المناقب /٣٢٨٤/ و/٣٢٨٥/ ومسلم في الفضائل /٤٣٣٠/، والترمذي في المناقب /٣٥٥٦/ وأحمد /١٣٠٣١/ ومالك في الموطّأ /١٤٣٤/.

كلّ ذلك كان في بيئة، لم تكن بيئة علم وتثقيف، ولم تعرف من الأمانة إلا جزئيّات متناثرة، ولم تعرفها كلاً لا يقبل التجزيء أجمع والتبعيض إلا في حياة محمّد ﷺ وسلوكه، ولولا فقد بيئته لهذه الصفة، واجتماع حقائقها، وتآلف معانيها فيه لما أجمع قومه على وصفه بها، ولما كان في ذلك كبير فائدة، أو مزيد مزيّة.

ـ **والزاوية الأخرى**: أن هذه الشهادة من قريش كانت عن مرحلة تعدّ أخطر المراحل التي يمرّ بها الشاب، وهي مرحلة اكتمال الرجولة، واتّقاد الغرائز، وهي مرحلة تختلف فيها الأغراض والغايات، والنوازع والاتّجاهات، وفي الشابّ في تلك المرحلة من موفور القوّة ما يجعله يندفع وراء تحقيقها إلى أقصى المدى، ومع ذلك كلّه فقد بقي هذا اللقب يصحب محمّداً ﷺ ويطبع شخصيّته طيلة حياته قبل البعثة، ولم تعرف عنه قريش ما يخرم هذه الأمانة أو يشذّ عنها، فمن ثمّ لم تستطع قريش أن تنزع هذا اللقب عن محمّد ﷺ بعد رسالته؟ كما أنها لم تستطع أن تمنحه أحداً من زعمائها؟ حتى أولئك الذين كانت تأتمر بأمرهم، وتصدر عن رأيهم؟.

فهل أنطق الله تعالى قريشاً بما قالت، ليكون من قولها حجّة ساطعة لمن يقول بعصمة الأنبياء قبل النبوّة وبعدها؟

ولتكون تلك الحجّة على لسان المخالف المعادي أبلغ في الشهادة، وأقوم في البيّنة، وأدنى ألا يرتاب المرتابون.؟

ثمّ إن هذه الشهادة من قريش تدلّ على أن الأمانة التي عرفتها قريش في شخصيّته ﷺ، كانت خلقاً أصيلاً نابعاً من فطرته، التي فطره الله عليها، واختصّه بها، بما تحوي من الفضائل والكمالات، فمن ثمّ فقد كان ﷺ معزولاً عن البيئة المحيطة به، ومحصّناً عنها ؛ فأنى لها أن تؤثّر فيه، أو تغيّره؟ وإن منطق الحقّ في مثله أن يؤثّر فيما حوله ولا يتأثّر، وأن يغالب الظواهر الاجتماعيّة، ويتغلّب عليها، حتى يصهرها في فضائله، ويشحنها بنسائمه، ويطبعها بطابع منهجه ورسالته.

عَنْ سَعْدِ بْنِ هِشَامٍ قَالَ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ فَقُلْتُ: أَخْبِرِينِي عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ فَقَالَتْ: **(كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ)** (١).

عَنْ سَعْدِ بْنِ هِشَامِ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: أَتَيْتُ عَائِشَةَ، فَقُلْتُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ أَخْبِرِينِي بِخُلُقِ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ قَالَتْ: (كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ، أَمَا تَقْرَأُ الْقُرْآنَ قَوْلَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: **(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)**؟ قُلْتُ: فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَتَبَتَّلَ قَالَتْ: لا تَفْعَلْ، أَمَا تَقْرَأُ: {**لَقَدْ**

(١) ـ رواه أحمد في المسند /٢٤١٣٩/.

كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ}، فَقَدْ تَزَوَّجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَقَدْ وُلِدَ لَهُ (١).

فهل عرفت قريش فتىً أطهر سيرة، وأزكى سريرة، وأشرف نسباً، وأكرم حسباً، وأعظم خلقاً من محمّد بن عبد الله ﷺ.؟

لقد لقّبته الأمين، وأجمع على ذلك عقلاؤها، ولو عرفت أحد زعمائها بذلك لما ضنّت عليه بتلك الصفات واختصّت بها محمّداً ﷺ من دونه.

ووصفته زوجه العاقلة الحكيمة وقد عاشت معه خمس عشرة سنة، خبرت خلالها شخصيّته وأخلاقه، فقالت له أول عهده برسالة السماء، وقد داخله الخوف مما جرى معه:

" **كلا ! والله لا يخزيك الله أبداً ؛ إنك لتصل الرحم، وتحمل الكلّ، وتقري الضيف، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحقّ**".

لقد كان ﷺ دائم السؤال لله عزّ وجلّ، كثير الضراعة والابتهال، أن يزيّنه الله بمكارم الأخلاق والآداب، وكان يقول: **(اللّهُمَّ كما حسّنت خَلقي فحسّن خُلُقي)**، فكان خلقه القرآن يرضى لرضاه، ويغضب لغضبه، ألا تقرءون القرآن.؟ لقد كان

---

(١) ـ رواه أحمد في المسند /٢٣٤٦٠/.

الصورة الحيّة للحقّ الذي بعثه الله به، واصطفاه لنشره وإحيائه، وإنك لن ترى شيئاً من آداب القرآن إلا وكانت صورته العمليّة حياة محمّد ﷺ: {**وعلّمكَ ما لم تكُن تعلمُ، وكان فضلُ الله عليكَ عظيماً**} [النساء : ١١٣].

ولقد لخّص ﷺ الغاية من بعثته، والأهداف العليا لرسالته بقوله ﷺ: (**إنما بعثتُ لأتمّمَ مكارمَ الأخلاق**).

فهل ترى في شيء من رسالته وهديه ما ينزل عن أكمل الأخلاق، وأحسن الآداب.؟

وكان حسن العشرة، كريم الصنيعة، ليّن الجانب، يحبّ اليسر ويؤثره، ما خيّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً فإن كان إثماً كان أبعد الناس عنه، بعث بالحنيفيّة السمحة، وأرسله الله رحمة للعالمين، وبشرى للمؤمنين.

لقد رفع رسول الله ﷺ همم أمّته ليكونوا عندما يحبّه الله ويرضاه ؛ فبيّن لهم أن الله تعالى يحبّ معالي الأمور، ويكره سفسافها.

وكان ﷺ يحبّ بذل المعروف، ويدعو إلى خصال الخير كلّها، كإطعام الطعام وإفشاء السلام، وعيادة المريض، وتشييع الجنائز، وخدمة الضعيف، وإغاثة اللهفان، وإجابة الدعوة.

وكان ﷺ يجيب دعوة الحرّ والعبد، ولا يأنف عن إجابة الضعيف المسكين، أو العبد أو الأمة.

وكان ﷺ يدعو أصحابه إلى ما يهدى إليه من طعام، ولا يؤثر نفسه أو أهله به، ويتفقّد أهل الفاقة من أصحابه، ويحسن إليهم ويواسيهم، ولا يختصّ دونهم بشيء

وكان ﷺ يحبّ العفو، ويسعى في الإصلاح بين الناس، ويحرص على جمع القلوب على الحقّ والهدى.

إن المجتمعات القبليّة هي أشدّ المجتمعات حفاظاً على التقاليد والعادات، وأعتاها في الخصومة والبغضاء، وأعصى على التطويع، وأبعد عن التأليف والتجميع، ومع ذلك كلّه.. وغيره وغيره.. فقد ذابت بدعوة رسول الله ﷺ عصبيّة الجاهليّة وطغيانها، وامّحى عنفوانها ونعراتها في مدّة لا تزيد عن عقدين من الزمن، ما هما إلا كلمحتين من نظر التاريخ ووعيه وتطوّره وتقلّب أحداثه.

فهل رأيت عظيماً من عظماء الدنيا كلّها استطاع أن يجمع القلوب النافرة، والنفوس الجامحة، بقوّة الحبّ، وسلطان الحقائق الإنسانيّة الخالدة التي أحكمت بالدين، ثمّ فصّلت على ثوب الفطرة فكانت صبغة الله، ومن أحسن من الله صبغة.؟!

فما استطاع أحد أن يجمع القلوب المتنافرة، ويؤلّف بين النفوس المتباينة كما استطاع ذلك رسول الله ﷺ، بإذن الله تعالى وتوفيقه، ومنّته وعنايته: {**هُو الذي أيّدكَ بنَصرِه وبِالمؤمنينَ، وألّفَ بينَ قلوبِهِم، لَو أنفقتَ مَا في الأرضِ جميعاً ما ألّفتَ بينَ قلوبِهِم، ولَكنّ الله ألّفَ بينَهُم**} [الأنفال: ٦٣].

لقد وقف رسول الله ﷺ يعلن إعلاناً لم يكن شعاراً يرفع، ولا دعوى يتمنّى بلوغها المصلحون، أو يطمح إليها الطامحون، وإنما كانت حقيقة ناصعة، توّجت جهاد عقدين من الزمن، وترجمت نجاح دعوته، وأهداف رسالته، وكأنها صورة من صور الشكر والثناء على الله تبارك وتعالى بما أنعم وتفضّل.. وقف المصطفى ﷺ ليقول في حجّة الوداع: (**إن كلّ شيء من أمر الجاهليّة موضوعٌ تحتَ قدميّ هاتين..**).

فانظر: أكانت تلك دعوى، أم أنها حقيقة عليا بلغتها الدعوة.؟!

لقد كانت ساعات عمره شهوراً، وشهوره أعواماً، وأعوامه تحتضن أجيالاً، هي مجمل ما قدّر الله من عمر للإنسانيّة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ؛ فكان يجاهد بلسانه وسيفه، ويرشد

أصحابه ويؤدّبهم، ويعلّمهم الكتاب والحكمة ويزكّيهم، بأقواله وأفعاله وأحواله، ويأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر..

وكان ﷺ يتقدّم أصحابه في ساحات الوغى، فما يكون أحد منهم أقرب إلى العدوّ منه، وإن الشجاع منهم من يستطيع أن يحاذي به في ساعات القتال، وكان يصفّهم للقتال كما يصفّهم للصلاة، ويحثّهم على تسوية الصفوف كما تصفّ الملائكة.

وكان ﷺ أشجع الناس، وأثبت الناس، وأصبر الناس، وكان إذا اشتدّ البأس، واحمرّت الحدق، اتّقى أصحابه به، فما يكون أحد أقرب إلى العدوّ منه، وكان يعلن عن نفسه في أرض المعركة ولا يستتر.

وكان ﷺ ينظّم الجيوش، ويصدر الأوامر للقوّاد، ويحثّهم على الصبر والجهاد، وكان يستشيرهم في كلّ شأن لم ينزل فيه وحي، وينزل على ما يراه صواباً من آرائهم، وكان يدبّر لهم الخطط الحربيّة، ويدرّبهم على القيادة والحزم في أمورهم..

وكان ﷺ إذا خطب احمرّت عيناه، وعلا صوته، واشتدّ غضبه، كأنه منذر جيش يقول: صبّحكم.. مسّاكم..

وكان ﷺ إذا دخل بيته يكون في مهنة أهله: يخدمهم، ويخدم نفسه ؛ فيرقع ثوبه، ويخصف نعله، ويتلطّف في عشرة

أهله ويحسن معاملتهم ؛ فيداعب الصغير، ويؤنس الكبير، ويغضي عن الهفوة، ويؤلّف بين نسائه، ويخفّف من غيرتهنّ.

وما ضرب رسول الله ﷺ بيده خادماً ولا امرأة إلا أن يجاهد في سبيل الله تعالى.

وكان ربما غفل الخادم عن الأمر يطلبه منه فلا يرضى لأحد من أهله أن يعنّفه، ويقول: **(دعوه، فلو قُدّر أمرٌ لكان)**.

خدمه أنس بن مالك رضي الله عنه عشر سنين،" **فما قال له لشيء فعله: لم فعلته.؟، ولا لشيء تركه لم تركته.؟**".

وكان ﷺ إذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة، لا يشغله عن طاعة ربّه شيء، وإذا خلا إلى نفسه انقطع إلى عبادة الله تعالى، والضراعة إليه، لا يطيق أحد ـ مهما اجتهد ـ أن يجاريه في صلاته ودعائه، وصيامه وعبادته ؛ فكان يقوم من الليل حتى تتفطّر قدماه، وكان يقوم نصف الليل، أو يزيد عليه، ثمّ يكون في النهار في رعاية أصحابه وتعليمهم، وفي جهاد الدعوة، وقيادة الأمّة.

وكان ﷺ يصوم حتى يقول أهله:" لا يفطر" لكثرة صيامه، ويواصل الصوم يومين وثلاثة أيام أو أكثر، وينهى أصحابه عن

ذلك رحمة بهم، وشفقة عليهم، لأنه ليس مثلهم، يبيت عند ربّه يطعمه ربّه ويسقيه.

وكان ﷺ أسخى الناس كفّاً، ما سئل شيئاً فقال: لا.

وكان أجود بالخير من الريح المرسلة، وكان ربّما يسأل العطاء فلا يجده، فيقول لسائله ﷺ: **(استدن عليّ، حتى يأتينا مال فنقضيه)**، وكان يعطي عطاء من لا يخشى الفقر، ولم يزل يعطي المؤلّفة قلوبهم، حتى أحبّوه أعظم الحبّ، وأصبحوا يؤثرونه على أنفسهم وأهليهم.

وكان ﷺ يعطي العطايا الجزيلة، ويبيت طاوياً هو وأهله، لم يخصّ نفسه بشيء، ولم يحمل إلى بيته درهماً مما يأتيه.

وكان ﷺ يعفو عمّن ظلمه، ويصل من قطعه، ويعطي من حرمه، ولم يكن يغضب لنفسه، ولا ينتصر لها، وإنما يغضب إذا انتهكت حرمات الله، فإذا انتهكت حرمات الله تعالى لم يقم لغضبه شيء.

ولقد أوذي في الله تعالى أشدّ الإيذاء، فلم يدع على قومه، ولم يتطلّع إلى الانتقام منهم، وإنما كان يقول: **(اللّهُمَّ اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون)**.

وعندما ناله ﷺ منهم أشدّ الأذى عُرض عليه عذابهم وهلاكهم، فقال: (**لا، بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله، لا يشرك به شيئاً**).

وكان ﷺ أحلم الناس وأشجع الناس، وأعدل الناس، وأعفّ الناس، لم تمسّ يده يد امرأة لا تحلّ له

وكان ﷺ أشدّ الناس حياءً، وكان أشدّ حياءً من العذراء في خدرها، وكان لا يثبت بصره في وجه أحد، يغضي عما يكره، ويتغافل عما لا يشتهي.

وكان ﷺ يقبل الهديّة، ويثيب عليها بأكثر منها، ويأكل الهديّة، ولا يأكل الصدقة.

وكان ﷺ يعصب الحجر على بطنه من الجوع، وربما عصب الحجرين، وإذا لم يجد ما يأكل أتمّ يومه صائماً.

وكان ﷺ يأكل ما حضر، ولا يأكل متّكئاً ولا على خوان، وكان إذا تغدّى لم يتعشّ، وإذا تعشّى لم يتغدّ، ولم يشبع من خبز الشعير ثلاثة أيام متتالية حتى لقي الله عزّ وجلّ، زهداً في الدنيا، وإيثاراً للآخرة على الأولى، لا فقراً ولا بخلاً.

وكان يمرّ الهلال والهلال والهلال، ثلاثة أهلّة في شهرين وما يوقد في أبيات رسول الله ﷺ نار، وإنما كان طعامهم الأسودان: التمر والماء.

وكان ﷺ ربما يأتيه الضيف يريد أن يطعمه، فيرسل إلى زوجاته هل عندكنّ من طعام.؟ فتقسم كلّ واحدة منهنّ أن ليس لديها من طعام، فيأخذ الضيف بعض أصحابه.

وإنما كان هذا الحال اختياراً منه ﷺ، فقد خيّره الله تعالى بين أن يكون نبيّاً عبداً، أو يكون نبيّاً ملكاً، فاختار أن يكون عبداً نبيّاً، وقال: **(أجوع يوماً فأصبر، وأشبع يوماً فأشكر)**.

وكان أحسن الناس وجهاً، وأظهرهم بشراً، وأكثرهم تواضعاً، قد أعطاه الله جوامع الكلم، وشوارد الحكم، واختصر له الكلام اختصاراً، لا يهوله شيء من شئون الدنيا، إذا رأى ما يعجب منها قال: **(اللّهُمَّ لا عيش إلا عيش الآخرة..)**، لا يمدّ عينيه إلى زينة الدنيا وزهرتها، وكان يقول:

(ما لي وللدنيا.؟! ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظلّ تحت شجرة، ثمّ راح وتركها).

وكان ﷺ يلبس ما وجد، ويركب ما تيسّر له من فرس، أو بغلة، أو حمار، أو بعير، ويردف خلفه عبده أو غيره، وكان يمشي

راجلاً، حافياً أو بنعلين أو خفّين، وربما مشى بغير رداء، ولا عمامة ولا قلنسوة.

وكان ﷺ يحبّ الطيب، ويأمر أصحابه بحسن المظهر، ويكره لهم الرثاثة، ويكره كلّ رائحة كريهة، ويجالس الفقراء، ويؤاكل المساكين ويقبل على جليسه حتى يرى أن ليس أحد أفضل عنده منه، ويكرم أهل الفضل ويدنيهم، وينزلهم منازلهم، ويعرف للناس أقدارهم، ويتألّف أهل الشرف بالبرّ بهم، ويصل رحمه، ولا ينساهم، غير أنه لا يؤثرهم على من هو أفضل منهم، ويقبل المعذرة، ولا يجفو في وجه أحد، قد وسع الناسَ حلمُه وبرُّه.

وكان ﷺ يمازح أصحابه ونساءه، ويداعب الأطفال غير أنه لا يقول في ذلك كلّه إلا حقّاً، ولا ينطق إلا صدقاً، وكان جُلّ ضحكه التبسّم، وربما ضحك من غير قهقهة.

وكان ﷺ متواصل الأحزان، دائم الفكرة ليست له راحة، ولا يتكلّم في غير حاجة، طويل السكوت، يفتتح الكلام ويختتمه بأشداقه ـ لا بأطراف فمه ـ ويتكلّم بجوامع الكلم فصلاً لا فضول فيه، ولا تقصير، دمثاً ليس بالجافي ولا بالمهين، يعظّم النعمة وإن دقّت لا يذمّ شيئاً ولا يعيبه، ولم يكن يذمّ طعاماً ولا يمدحه، إن اشتهاه أكله، وإن كرهه تركه.

وكان ﷺ لا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها، وإذا انتهكت حرمات الله لم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له، إذا أشار أشار بكفّه كلّها، وإذا تعجّب قلبها، وإذا غضب أعرض وأشاح، وإذا فرح غضّ طرفه، جُلّ ضحِكِه التبسّمُ، ويَفترّ عن مثل حبّ الغمام، وكان لا يثبت نظره في وجه أحد، خافض الطرف، نظره إلى الأرض أكثر من نظره إلى السماء، جلّ نظره الملاحظة، ولا يشافه أحداً بما يكره، وإذا بلغه عن أحد ما يكرهه قال: **(ما بال قوم يفعلون كذا وكذا.؟!)**.

وكان ﷺ يخزن لسانه عما لا يعنيه، يؤلّف أصحابه ولا ينفّرهم، ويجمعهم ولا يفرّقهم، يكرم كريم كلّ قوم، ويولّيه عليهم، ويحذر الناس ويحترس منهم، من غير أن يطوي عن أحد بِشره..

وكان ﷺ يتفقّد أصحابه، ويسأل الناس عما في الناس ويحسّن الحسن ويصوّبه، ويقبّح القبيح ويوهنه، معتدل الأمر غير مختلف، لا يغفل مخافة أن يغفلوا أو يملّوا، لكلّ حال عنده عتاد، لا يقصر عن الحقّ ولا يجاوزه، يليه من الناس خيارهم وأفضلهم عنده أعمّهم نصيحة، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة ومؤازرة.

وكان ﷺ لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر، ولا يوطّن الأماكن ـ أي لا يميّز لنفسه مكاناً خاصّاً ـ وينهى عن توطينها، وإذا انتهى إلى القوم جلس حيث ينتهي به المجلس، ويأمر بذلك، ويعطي كلّ جلسائه نصيبه، حتى لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه، من جالسه أو قاومه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه، ومن سأله حاجة لم يردّه إلا بها أو بميسور من القول، قد وسع الناس بسطه وخلقه ؛ فصار لهم أباً، وصاروا عنده في الحقّ سواء، يتفاضلون عنده بالتقوى، مجلسه مجلس حلم وحياء وصبر وأمانة، لا ترفع فيه الأصوات، ولا تؤبن فيه الحرم، ولا تخشى فلتاته، يوقّرون فيه الكبير، ويرحمون الصغير، ويرفدون ذا الحاجة، ويؤنسون الغريب، وكان أحبّ إليهم أن يقوموا إليه إذا حضر إليهم، إلا أنهم كانوا لا يقومون لما يعلمون من كراهته لذلك، وكان ينهاهم أن يطروه كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم عليه السلام، ويقول لهم: **(قولوا: عبد الله ورسوله)**.

وكان ﷺ يقول: **(إنما أنا عبدٌ، أجلِسُ كما يجلِسُ العبدُ، وآكلُ كما يأكُلُ العبدُ)**.

وقال ﷺ مرّة لرجل هابه حتى ارتعدت فرائصه: **(هوّن عليك، إنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكّة)**.

ـ وكان ﷺ دائم البشر سهل الخلق، ليّن الجانب، ليس بفظّ، ولا غليظ، ولا صخّاب، ولا فحّاش، ولا عيّاب، ولا مدّاح، ولا يجزي بالسيّئة السيّئة، ولكن يعفو ويصفح ، يتغافل عمّا لا يشتهي، ولا يُقنط منه، قد ترك نفسه من ثلاث: الرياء، والإكثار، وما لا يعنيه، وترك الناس من ثلاث: لا يذمّ أحداً، ولا يعيّره، ولا يطلب عورته.

ـ وكان ﷺ لا يتكلّم إلا فيما يرجو ثوابه، وإذا تكلّم أطرق جلساؤه كأنما على رءوسهم الطير، وإذا سكت تكلّموا، لا يتنازعون عنده الحديث من تكلّم عنده أنصتوا له حتى يفرغ، حديثهم حديث أوّلهم، يضحك مما يضحكون منه، ويعجب مما يعجبون منه، ويصبر للغريب على الجفوة في المنطق، ويقول: **(إذا رأيتم صاحب الحاجة فأرفدوه)**، ولا يطلب الثناء إلاّ من مكافئ.

وكان ﷺ أوقر الناس في مجلسه، لا يكاد يخرج شيئاً من أطرافه، وكان كثير السكوت، لا يتكلّم من غير حاجة، يُعرض عمّن تكلّم بغير جميل.

وكان ﷺ ضحكه تبسّماً، وكلامه فصلاً، لا فضول ولا تقصير، وكان إذا تكلّم رؤي كالنور يخرج من بين ثناياه.

وكان ﷺ أحسن الناس وجهاً، وأحسنهم خلقاً، لو رأيته رأيت الشمس طالعة، وكان إذا سرّ استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر.

يقول أبو هريرة رضي الله عنه:" **ما رأيت شيئاً أحسن من رسول الله ﷺ كأن الشمس تجري في وجهه، وما رأيت أحداً أسرع في مشيه من رسول الله ﷺ، كأنما الأرض تطوى له، وإنا لنجهد أنفسنا، وإنه لغير مكترث**".

وكان ﷺ إذا مشى تقلّع كأنما يمشي في صبب، أو تكفّأ تكفّياً، كأنما ينحطّ من صبب، وإذا صمت علاه الوقار، وإذا تكلّم علاه البهاء، أجمل الناس وأبهاهم من بعيد، وأحسنهم وأحلاهم من قريب، حلو المنطق، لا نزر، ولا هذر، كأن منطقه خرزات نظمن يتحدّرن.

وكان ﷺ إذا التفت التفت معاً، وكان أجود الناس كفّاً، وأجرأ الناس صدراً، وأصدق الناس لهجة، وأوفى الناس ذمّة وألينهم عريكة، وأكرمهم عشرة، من رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبّه، يقول واصفه: **(لم أر قبله، ولا بعده مثله)**.

وكان يتكلّم بالكلام لو عدّه العادّ لأحصاه ولم يكن يسرد الحديث سرداً، وكان يعيد الكلمة ثلاثاً لتعقل عنه.

ولم ير ﷺ قطّ مادّاً رجليه بين أصحابه، وما دعاه أحد من أصحابه إلا قال: **(لبّيك.. لبّيك..)**.

وكان ﷺ يكره أن يتميّز على أصحابه.

وكان ﷺ يمازح أصحابه، ويخالطهم، ويحادثهم، ويؤنسهم، ويأخذ معهم في تدبير أمورهم، ويسألهم عن خاصّة شئونهم، ليعينهم على حاجاتهم، ويداعب صبيانهم، ويمازحهم، ويجلسهم في حجره، فربّما بال الصبيّ في حجره، فلا يزيد على أن ينضح الماء على بوله، ولا يتغيّر.

وكان ﷺ يصلّي ولجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء، وكان يقول: **(إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له)**.

وكان ﷺ لا يخصّ أهل بيته دون الناس، بل كان لا يساويهم بهم، ويؤثر أصحابه بالعطاء دونهم، تعليماً لهم على الزهد في الدنيا، وإيثار الآخرة عليها، أتاه مرّة سبي كثير فشكت إليه ابنته فاطمة رضي الله عنها ما تلقى من عناء خدمة البيت، وطلبت منه خادماً يكفيها مئونة بيتها، فأمرها أن تستعين

بالتسبيح والتكبير والتحميد، وقال لها ﷺ: **(لا أعطيكِ، وأدع أهل الصفّة تطوي بطونهم من الجوع)**.

وكانت مجالسه ﷺ مع أصحابه مجالس تذكير بالله سبحانه وتعالى، وتعليم، وترغيب وترهيب، وإنذار وتبشير، مما يوجب لهم رقّة القلوب، والزهد في الدنيا والإقبال على الآخرة، والخروج عن الحظوظ النفسانيّة والأهواء البشريّة.

وكان ﷺ يوصي أصحابه بتقوى الله عزّ وجلّ، وصدق الحديث، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، وترك الخيانة، ورعاية حقّ الجار، والإحسان إليه وإكرام الضيف، ورحمة اليتيم، ولين الكلام، وبذل السلام، وإطعام الطعام، وتوقير ذي الشيبة، والعفو والإصلاح بين الناس، وكظم الغيظ، والبعد عن الغضب، وكثرة الذكر، والاستغفار.

وكان أصحابه ربما عدّوا له في المجلس الواحد أكثر من سبعين مرّة يستغفر الله، ويتوب إليه.

ولقد أبطل بدين الإسلام كلّ عادات الجاهليّة، وأخلاقها ومفاسدها ؛ فأبطل الغناء والمعازف، وكلّ ذي وتر، وحرّم الكذب والغيبة، والبخل والشحّ، والمكر والخديعة، وسوء الظنّ، وفساد ذات البين، وقطيعة الأرحام، والكبر وسوء الخلق، والفخر

والاختيال، وقول الزور وشهادة الزور، والحقد والحسد، والسحر والطيرة، والبغي والعدوان، والبهت والنميمة، والظلم وأكل أموال الناس بالباطل.

ولم يكن شيء أبغض إليه من الكذب، وكان إذا اطّلع على كذبة من بعض أهله لم يزل متغيّر الوجه معه حتى يحدث توبة من ذلك.

وكان ﷺ إذا أوى إلى منزله جزّأ دخوله ثلاثة أجزاء: جزء لله، وجزء لنفسه، وجزء لأهله، ثمّ جزّأ جزأه بينه وبين الناس، فيردّ ذلك بالخاصّة على العامّة، ولا يدّخر عنهم شيئاً.

وكان من سيرته ﷺ في جزء الأمّة: إيثار أهل الفضل بإذنه وقسمه على قدر فضلهم في الدين:

فمنهم ذو الحاجة، ومنهم ذو الحاجتين، ومنهم ذو الحوائج، فيتشاغل بهم، ويشغلهم فيما يصلحهم والأمّة من مسألتهم عنه، وإخبارهم بالذي ينبغي لهم، ويقول: **(ليبلّغ الشاهد الغائب، وأبلغوني حاجة من لا يستطيع إبلاغها، فإنه من أبلغ سلطاناً حاجة من لا يستطيع إبلاغها ثبّت الله قدميه يوم القيامة).**

لا يذكر عنده إلا ذلك، ولا يقبل من أحد غيره.

يدخلون روّاداً، ولا يفترقون إلا على ذواق، ويخرجون أدلّة على الخير.

وكان ﷺ يكثر أن يشاور أصحابه، فيما لم ينزل فيه وحي، وينزل عند رأي بعضهم ويعمل به، وقال لصاحبيه ووزيريه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما: **(لَوِ اجْتَمَعْتُمَا فِي مَشُورَةٍ مَا خَالَفْتُكُمَا)**(١).

وكان ﷺ يكنّي أصحابه، ويدعوهم بأحبّ الأسماء إليهم، ويغيّر لهم الأسماء القبيحة أو المكروهة إلى أسماء حسنة.

وكان ينهى عن الطِّيرة، ويُعجبه الفأل الحسن، وهو الكلمة الطيّبة، وكان يعجبه التيمّن في تنعّله وترجّله، وفي طهوره، وفي شأنه كلّه.

وكان ﷺ أبعد الناس في هديه وسيرته عن كلّ ما نهى الناس عنه، قد شغف قلبه الشريف بعبادة ربّه، والاستغراق في مناجاته وذكره، قام من الليل حتى تورّمت قدماه وتفطّرت، فأشفق عليه أهله وأصحابه، وقالوا له: أتفعل ذلك يا رسول الله، وقد غفر لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر.؟ قال: **(أفلا أكون عبداً شكوراً !؟)**.

---

(١) ـ كما في مسند الإمام أحمد: /١٧٣٠٩/.

وكان ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة، وكان يقول: (**أرحنا بها يا بلال ! أرحنا بها يا بلال !**)، وكان يقول أيضاً: (.. **وجعلت قرّة عيني في الصلاة**).

وكان آخر كلامه من الدنيا ﷺ:

(**الصلاة.. الصلاة..**

وما ملكت أيمانكم..

اتّقوا الله فيما ملكت أيمانكم..).

الخاتمة

وبعد ؛ فإذا لم يكن محمّد بن عبد الله ﷺ نبيّاً، بل أفضل من اجتباهم الله بالنبوّة، وحباهم بالرسالة، فمن عسى أن يكون نبيّاً.؟ وماذا يثبت من نبوّة سواه من الأنبياء.؟

وإذا كان أهل الكتاب يقرّون باصطفاء الله بعض خلقه بالنبوّة، وتكليفهم بالرسالة، فأنى لهم أن يثبتوا نبوّة أنبيائهم إن لم يعترفوا بنبوّة محمّد ﷺ ورسالته.؟!

وإن لم يكن هذا الفضل العظيم الذي أسداه محمّد بن عبد الله ﷺ للإنسانيّة، وهذه الأمّة العظيمة التي أخرجها خير أمّة للناس بإذن الله.. إن لم يكن ذلك من عمل النبوّة فماذا يمكن أن يكون إذن.؟

وهل يمكن أن يقاس ما قدّمه محمّد بن عبد الله ﷺ للإنسانيّة بما قدّمه من سبقه من الأنبياء.؟

قل صدق الله، ومن أصدق من الله حديثاً: {مَا كانَ محمّدٌ أبا أحَدٍ مِن رِجَالِكُم، ولكنْ رَسُولَ الله وخَاتَمَ النبيّين، وكانَ اللهُ بِكُلّ شَيءٍ عليماً (٤٠)} [الأحزاب].

أهم المراجع

القرآن الكريم
تفسير ابن جرير
تفسير ابن كثير
تفسير الآلوسي
صحيح البخاري بشرح العيني وابن حجر
صحيح مسلم بشرح النووي
سنن أبي داود
سنن النسائي بشرح السيوطي والسندي
سنن الترمذي بشرح ابن العربي
سنن ابن ماجه
موطأ الإمام مالك
مسند الإمام أحمد
المستدرك - للحاكم
الطبقات الكبرى - لابن سعد
دلائل النبوة - لأبي نعيم
المواهب اللدنية - بشرح الزرقاني
الشفاء - للقاضي عياض
شرح الشفاء - للخفاجي
الخصائص الكبرى - للسيوطي
جلاء الأفهام - لابن القيم

تاريخ الإسلام - للذهبي
البداية والنهاية - لابن كثير
الإصابة في تمييز الصحابة - لابن حجر
تاريخ الخلفاء - للسيوطي
محمد المثل الكامل - لجاد المولى
القول الفصل - لشيخ الإسلام مصطفى صبري
القرب في فضل العرب – للعراقي
ذكرى المولد - للعلامة محمد زاهد الكوثري
الشمائل المحمدية - للترمذي
محمد رسول الله - للخضر حسين
السيرة النبوية - لابن هشام
نتائج الأفهام - لمحمود باشا الفلكي

فهرس المحتويات

صورة غلاف الطبعة الأولى
تصدير
تقدمة الكتاب لفضيلة الأستاذ الدكتور محمد أبو الفتح البيانوني
مقدّمة الناشر
كلمة في التعريف بالشيخ أحمد عز الدين البيانوني رحمه الله
كلمة في التعريف بالشيخ عبد الفتاح أبو غدّة رحمه الله
فاتحة القول
ولادة الرسول
من معجزات الولادة
المعجزات ونواميس الطبيعة
رضاعه
طفولته
شبابه
شبابه
ما من نبي إلا وقد رعى الغنم
تبشير الكتب السماوية به
قبل البعثة
بعثته

لم يأخذ من كتاب، ولم يتلقّ من بشر

إن محمداً صلى الله عليه وسلم رسول وليس بزعيم

هرقل يذعن للرسول بالنبوة، وينفي عنه الزعامة والمُلك

من معجزاته

القرآن الكريم

انشقاق القمر

تكثير الطعام القليل

نبع الماء من بين أصابعه وتكثيره ببركته

حديث الإسراء

تفضيله على النبيين، وطرف من خصائصه

ميثاق النبيين

عموم رسالته

شفاعته

شمائله الكريمة

لزوم الأدب معه

تعظيمه

كيف نحيي ذكراه

ومضات من هدي النبيّ الخاتم